كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنين بدسوق

آيات البشرى في قصة إبراهيم عليه السلام

دراسة تحليلية

للدكتور

محمود أحمد محمود مخلص

أستاذ التفسير المساعد في كلية أصول الدين والدعوة بطنطا

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله حمداً يليق بنعمه ، و يكافئ مزيدها ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك به، أنعم على رسوله وعلى أمته بنزول القرآن المبين والكتاب المنير، وحفظه سبحانه من التحريف و التغيير والتزييف و الضياع مصداقاً لقوله و وعده سبحانه " **إنانَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**" و أشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أرسله ربه للعالمين هادياً و مربياً ومعلماً و أنزل عليه القرآن، وعلمه التبيان .

اللهم صل وسلم وبارك على من كان خلقه القرآن وشغله القرآن ، و علمه بما في القرآن سيدنا و نبينا محمد الذي أمرنا الله سبحانه أن نقتدي بأخلاقه و نتأسى بشمائله إذا أردنا النجاة من يوم الفزع الأكبر ، و رضي الله على آله و صحبه الذين كانوا يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، و عمن اقتفي أثرهم ، و سار على دربهم و اتبع طريقهم إلي يوم الدين .....وبعد

فإن الحق سبحانه و تعالى قد نور بكتابه القلوب، و أنزله في أوجز لفظ وأعجز أسلوب ، فأعيت بلاغته البلغاء ، و أعجزت حكمته الحكماء ، و أبكمت فصاحته الخطباء ، و بهرت بلاغته العقول، و ظهرت فصاحته على كل مقول، و تضافر إيجازه و إعجازه ،و تظاهرت حقيقته و مجازه، و هو مأدبة الله التي لا ينفذ زادها ، و لا ينضب معينها ، و لا يملها أهلها ، و هو للمؤمنين دواء و شفاء و غذاء ، هو الحياة في أسمى صورها و أجمل معانيها ، هو نعيم الدنيا و الآخرة . وصدق الرسول الكريم إذ قال في وصفه " ..... هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلَق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم ينته الجن إذ سمعته أن قالوا:"**إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً**"من قال به صدق ، و من حكم به عدل ، و من عمل به

أجر ، و من دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم "([1]) ولقد بذل كثير من العلماء جهودهم في خدمة هذا الكتاب الكريم لنيل الشرف العظيم، ومن منطلق خدمة كتاب ربي الجليل شرعت أتأمل ما قصه القرآن من أنباء الرسل ما فيه أبلغ المواعظ وأنفع العبر، ومن تلك الأنباء قصة إبراهيم–عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام– والذي ذكر في أربع وعشرين سورة من القرآن ، منها ما هو في قصته مع أبيه وهو في وطنه مجملا ومفصلا ،ومنها ما هو في بيان مجادلته مع قومه، ومنها ما هو في بيان إمامته وكون ملته أساس دين الله تعالى،ومنها ما هو خاص بإسماعيل وقومه العرب من بناء البيت الحرام ،وإسكانه هناك ومنها ما هو في حديث ضيفه المكرمين وبشارتهم إياه بإسحاق وإخباره بإهلاك قوم لوط .

ولقد اصطفيت من ذلك كله آيات البشرى في رحاب هذه القصة الكريمة، والتي تعد نوعاً من أنواع إعجاز القرآن ينبغي على المسلم أن يعي مغزاه ، ويفقه مرماه ، ويعمل بأوامره ، وينأى عن نواهيه حتى يسعد في دنياه وأخراه ٠

الهدف من دراسة هذا الموضوع ما يلي :-

أولا: إثبات خلو القرآن الكريم من التكرار المحض ، بل كل ما أعيد فيه إنما هو لحكمة اقتضاها سياق النظم الكريم.

<u>ثانياً :</u> إبراز وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم وهو البلاغة العليا لألفاظه ومعانيه ، وتطبيق ذلك على آيات البشرى في قصة إبراهيم عليه السلام .

---

١) جزء من حديثه طويل أخرجه الترمذي عن علي – رضي الله عنه – في كتاب فضائل القرآن (٥ / ١٧٢) رقم ٢٩٠٦ و قال عنه : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، و أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١ / ٩٩١) ، و الدارمي في كتاب فضائل القرآن باب فضل من قرأ القرآن (٢ / ٦٢٥) رقم ٣٣٣١ .

ثالثاً : إثبات خلو القرآن من أي زيادة ، بل كل حرف فيه إنما جاء لغرض يتطلبه المعنى المراد وموجب يوجبه السباق واللحاق .

وأما عن سبب اختياري لهذه القصة بالذات فهو أن الحديث فيها يختلف عن غيرها من القصص ، فليس فيها الحديث عما كان بين النبي وقومه ، وإنما جاءت تحدثنا عن طيب الخلال وشريف الخصال التي اتسم بها إبراهيم الخليل ، وما أكرمه الله به هو وامرأته ، ولفت الأنظار إلى قدرة الله الخارقة التي لا يعجزها شيء وأنه فوق الأسباب ، والتنبيه إلى عدم اليأس وقطع الأمل ، فرحمة الله واسعة ، سجل القرآن كل ذلك في حديث موجز في عدة سور، فاعتمدت على ربي وأمسكت بقلمي وأدليت بدلوي في هذه الآيات ،وأبديت بعض الدلائل الإعجازية فيها ، فشرعت في تتبع هذه القصة من خلال آي الذكر الحكيم ، أعيش أحداثها وأحيا مشاهدها ، وأتأمل نظمها في كل حلقه من حلقاتها ، وأمعن النظر في أسرارها البيانية ، وأتدبر تلوينها البديع في التعبير عن المعنى الواحد بأنماط مختلفة طبقاً لملابسات المشاهد في كل حلقة ، باحثاً عن أسرار هذا التنوع الأسلوبي المعجز

هذا ، وقد قسمت بحثي هذا إلى مقدمة وتمهيد ، ومبحثين وخاتمة

المقدمة وفيها بينت الهدف من دراسة الموضوع وخطة البحث ومنهجه ***وأما التمهيد*** فيتضمن ***أولا :***تعريف البشرى ثانيا:مفهوم القصة في اللغة ثالثا: حكمة التكرار في القصص القرآني ***رابعا :*** عرض آيات البشرى في قصة إبراهيم بإيجاز

وأما **المبحث الأول** فعنوانه"تفسير آيات البشرى "ويتضمن أربعة مطالب: **الأول** : مجيء الرسل بالبشرى **الثاني** : نبأ ضيف إبراهيم .

الثالث : حديث ضيف إبراهيم **الرابع:** جدال إبراهيم عن لوط عليهما السلام

المبحث الثاني :من أسرار آيات البشرى في قصة إبراهيم عليه السلام ،ويشتمل على مطلبين : **المطلب الأول :** من أسرار التشابه والتنوع في الحديث

المطلب الثاني : من أسرار البلاغة في آيات البشرى ،ويندرج تحته أهم الخصائص البلاغية ومنها :-الاستفهام – النهي – النداء – الإيجاز – الإطناب التكرير – التذييل – التعريف باسم الإشارة – وضع الظاهر موضع الضمير التقديم والتأخير – الفصل والوصل – القصر – الالتفات – التعبير بالماضي عن المضارع والعكس –المجاز.

الخاتمـــة ، وفيها أهم نتائج البحث ، ثم أهم المراجع ، وفهرس الموضوعات .

وأما عن منهجي في هذا البحث فقد سرت فيه على النحو التالي :-

أولاً :صدرت البحث بتمهيد عرضت فيه لقضية التكرار في القصص القرآني ، فأبرزت بعض الحكم والأسرار التي دعت إلى التكرار، وذلك بعد تعريف البشرى، وبيان مفهوم القصة بإيجاز.

ثانياً : عقدت المبحث الأول للدراسة التحليلية للآيات ، فقدمت بين يدي كل حلقة بمقدمة تلقي الضوء على موضوعات الحلقة ، وتبين تناسبها مع السورة ، ومع الآيات التي تسبقها ، وقسمت كل حلقة إلى بداية وموضوعات ، تقل وتكثر طبقاً لآياتها وخاتمة ، مستشهدا بأقوال المفسرين ،مرجحا بين أقوالهم ما أراه مرجحا، مقتبسا من أقوال العلماء المجتهدين ما أراه صحيحا ومفيدا .

ثالثاً : أتبعت ذلك بمبحث آخر أبين فيه أسرار التشابه والتنوع في نظم الحلقات التي يتضمنها المبحث السابق ، وذلك من خلال المقارنة المتصلة بين نظمها مجتمعة فذكرت أقوال العلماء والمفسرين ، وما أدى إليه اجتهاد الباحث في التوفيق بين الآيات المتشابهة أو بيان السر والحكمة في ذلك التكرار أو الزيادة أو النقصان أو التقديم أو التأخير ، وما الحكمة في تخصيص الآية بذلك دون الأخرى ؟ ليجري ذلك مجرى علامات تزيل إشكالها وتمتاز به عن أشكالها .

رابعاً : ثم أتبعت ذلك بالحديث عن الأسرار البلاغية العامة في آيات البشرى في قصة إبراهيم عليه السلام .

ولا أدعي أني بلغت في بحثي هذا درجة الكمال ، بيد أني توخيته وسعيت إليه مستمداً من الله العون والسداد فمنه التوفيق وعليه التوكل **(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)** (فاطر ٢) ونحن إذ نقدم هذا الجهد المتواضع راجين ثوابه من المولى الكريم نضرع إليه جل شأنه بدعاء إبراهيم عليه السلام " **ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك** المصير " وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

تمهيد

قبل أن نلج غمار هذا البحث يجدر بنا أن نتحدث هنا عن بعض مصطلحات البحث

أولا: تعريف البشرى

جاء في مختار الصحاح : أَبْشَرَهُ وبَشَّرَهُ تبشِيراً، والاسم البِشارَةُ بكسر الباء وضمها تعالى" **وأبشروا بالجنة** "(فصلت:٣٠) و بَشِرَ بكذا ، واستَبْشَرَ به ، وبَشَرَني فلان بوجه حسن أي لقيني فلان وهو حسن البِشْرِ، أي طلق الوجه ، وبُشْرَى إذا سميت به رجلا لم تصرفه معرفة كان أو نكرة للتأنيث و تَبَاشِيرُ القوم: بشر بعضهم بعضا ،والتّبَاشِيرُ البشرى، وتباشير الصبح: أوائله، وتباشير النخل :ما يبدو من رطبه [١]

والبشارة تكون بالخير والشر ، فإن كانت البشارة مطلقة فلا تكون إلا بالخير ، وان كانت مقيدة فهي بشارة بالشر كقوله تعالى " **فبشرهم بعذاب أليم** (آل عمران:٢١)[٢] وأما في الاصطلاح فهو :كل خبر صادق تتغير به بشرة الوجه ويستعمل في الخير والشر[٣] وقيل: هي الإخبار بالأمر المحبوب، فهو أخص من الخبر، والإخبار بما يظهر سرور المخبر[٤] ومن هنا سميت البشرى بذلك لأنها تؤثر في بشرة الوجه ،ولذلك كانت نوعين :بشرى سارة تؤثر فيه نضارة وبهجة ،وبشرى محزنة تؤثر فيه عبوسا، ولكن إذا أطلقت كانت للسرور، وإذا قيدت كانت بحسب ما تقيد به.

---

١) مختار الصحاح مادة بشر، دار الكتاب العربي– بيروت ، ١٤٠١– ١٩٨١م

٢) ينظر مقاييس اللغة ، ولسان العرب مادة (بشر) ١/ ٢١٦ ، ٢١٧ .

٣) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي(١/ ١٣١) ت:محمد رضوان الداية، دار الفكر – بيروت ١٤١٠

٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ٣٥٢) الدار التونسية للنشر

والبشرى خلق من أخلاق القرآن الكريم، وفضيلة من فضائل الإسلام العظيم، وجزء من هدي النبي– صلى الله عليه وسلم– والمؤمن من شأنه أن يكون مبشرا بالخير ومبشرا بدعوة الحق ،ومستبشرا بين الناس، فهو يحاول ما استطاع أن يكون طلق الوجه منبسط الأسارير، مذكرا بنواحي التفاؤل والبشر والأمل في هذه الحياة[١]

ولقد بشر الله – تعالى– خليله بالبشرى المطلقة وهي البشرى بالخير، إذ وهبه الله – عز وجل – الولد وهو إسحاق فبشره به قبل أن تحمله أمه . وقد جاءت أغلب المواضع التي ذكرت فيها قصة الهبة بلفظ (البشرى) وذلك ليدخل السرور إلى نفس سيدنا إبراهيم عليه السلام قبل معرفته مضمون الخبر ؛إذ إنه كان شيخا كبيرا والإنسان في مثل هذه الحال يكون يائسا من إنجاب الولد ، فكان هذا الخبر – أي صيغة البشرى – سارا لنفسه ، فناسب كل لفظ موضعه ، فتبارك الله الحكيم الخبير والملاحظ أن القران الكريم استعمل لفظ (البشرى) ولم يقل" جاءته بخبر ولادة إسحاق" ليدخل السرور إلى النفس قبل معرفة مضمون الخبر، لأن إبراهيم عليه السلام كان شيخا كبيرا والإنسان في مثل هذه الحال يكون يائسا من إنجاب الولد فكان هذا الخبر سارا لنفسه كما لو يبشر الإنسان بشيء يسره ، وفي الذاريات "وبشروه بغلام عليم" ولم يقل : وأخبروه لأن الخبر السار يسمى بشارة كما هو عند أهل اللغة، فقد جمعت لفظة (البشرى) بين كونها خبرا وبين كونها شيئا يسر المخبر فهو نوع من اختصارات القران الكريم العجيبة ،فسبحان من هذا كلامه.

١) موسوعة أخلاق القرآن د:أحمد الشرباصي(٥/ ٧٢) دار الرائد العربي بيروت– لبنان .

ثانيا: مفهوم القصة

القصة: الفعلة من قص الشيء يقصه قصا وقصصا بمعنى تتبعه لأمر وغاية ينتهي إليها من ذلك التتبع ، ففي التهذيب: قلت : أصل القَصِّ : اتِّباع الأثر، يقال : خرج فلانٌ قَصَصاً في أثر فلانٍ وقصّاً ، وذلك إذا اقتَصَّ أثره ، وقيل : للقاصِّ يَقُصُّ القَصص لاتباعه خبراً بعد خبرٍ وسوقهِ الكلام سوقاً ، وقيل القص :تتبع الأثر بالليل فقط"[١]والقص: البيان، والقصص- بفتح القاف- :الخبر المقصوص ، وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه، والقصص- بكسر القاف- :جمع القصة التي تكتب[٢] وقيل القصة: الخبر والحديث، ويقال: قص عليه خبره يقصه أورده، وقص عليه الخبر أو الحديث والأمر قصص :أعلمه به وأخبره ، والقاص: واحد جمعه قصاص، وهم الذين يتتبعون القصة وأحداثها فيحكونها ويخبرون بها ، أو هم الذين يأتون بالقصة على وجهها ومن نصها وكأنهم يتتبعون معانيها وألفاظها[٣]

مما سبق يستبين لنا أن مدلول القصة هو: الخبر المشتمل المعاني المتتابعة والحكاية عن نبأ وقع في زمن مضى لا يخلو من بعض عبرة مع شيء من التطويل في الأداء

ثالثا: حكمة التكرار في القصص القرآني

نزل القرآن الكريم منجماً في ثلاث وعشرين سنة ليعالج حياة الناس ويوجهها نحو الخير أولا بأول ،وكان القصص القرآني وسيلة من وسائل التبليغ التي تنفذ مباشرة إلى القلوب والعقول فالناس مفطورون علي حب القصص ، يقرأونه ويسمعونه ليعرفوا أخبار الأسلاف وأحوالهم ، والقصص القرآني يشمل مساحة واسعة من آيات القرآن الكريم وسوره ، حاملاً إلى الناس أخبار الأولين

---

١) تهذيب اللغة للأزهري(٨/ ٢٥٦) .

٢) لسان العرب (٣٦٥/٥)

٣) تاج العروس(٤/ ٤٢١، ٤٢٢)

وسيرهم وأحوالهم وسنن الله تعالي في المؤمنين منهم والمكذبين ، إنه قصص تربوي وعظي في المقام الأول ، وفي مثاني القصص نجد ألواناً متنوعة من الدعوة إلى الله تعالى ، والهدف واحد في ذلك كله وهو أن يؤمن الناس لرب العالمين .

وفي القرآن الكريم كثير من القصص الذي تكرر في أكثر من سورة ، ومن الخطأ أن يتوهم متوهم أن هذا تكرار لشيء واحد ، والأمر ليس كذلك على الحقيقة ، ولكن تكرار قصص القرآن مبني على أصول وقواعد ويرمي إلى أغراض وأهداف ، وينضوي تحت حكم وأسرار نوجز بعضها فيما يلي:

أولا : تكرار القصص في القرآن الكريم كان أحد أنواع الإعجاز والتحدي للمعاندين للدعوة الإسلامية ؛ حيث إن " إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة وتتبين فيه البلاغة ، وأعيد كثير من القصص في مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة ، ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإيتان بمثله مبتدأ به ومكرراً، ولو أمكنهم المعارضة لقصدوا تلك القصة وعبروا عنها بألفاظ لهم تؤدي إلى تلك المعاني ونحوها ، فعلى هذا القصد بتقديم بعض الكلمات على بعض وتأخيرها [١] ولقد أكد المرحوم الرافعي هذه الحكمة الرائعة حيث قال: وها هنا معني دقيق في التحدي ما نظن العرب إلا وقد بلغوا منه عجباً ، وهو التكرار الذي يجيء في بعض آيات القرآن ، فيختلف في طرق الأداء وأصل المعنى الواحد في العبارات المختلفة ، كالذي يكون في بعض قصصه لتوكيد الزجر والوعيد وبسط الموعظة وتثبيت الحجة ونحوها ، أو في بعض عباراته لتحقيق النعمة وترديد المنة والتذكير بالمنعم واقتضاء شكره إلى ما يكون في هذا الباب ، وهذا مذهب للعرب معروف ، ولكنهم لا يذهبون إليه إلا في ضروب من

---

١) إعجاز القرآن للباقلاني (١ / ١١٦) .

خطابهم للتهويل والتوكيد والتخويف والتفجع وما يجري مجراها من الأمور العظيمة وكل ذلك مأثور عنهم منصوص عليه في كثير من كتب الأدب والبلاغة ، بيد أن وروده في القرآن مما حقق للعرب عجزهم بالفطرة عن معارضته . وإنهم يخلون[١] عنه لقوة غريبة فيه لم يكونوا يعرفونها إلا توهما ، ولضعف غريب في نفوسهم لم يعرفوه إلا بهذه القوة ؛ لأن المعني الواحد يتردد في أسلوبه بصورتين أو صور كل منها غير الأخرى وجها أو عبارة ، وهم على ذلك عاجزون عن الصورة الواحدة ومستمرون على العجز لا يطيقون ولا ينطقون ، فهذا لعمرك أبلغ في الإعجاز وأشد عليهم في التحدي، وقد خفي هذا المعنى (التكرار) على بعض الملاحدة وأشباههم ومن لا نفاذ لهم في أسرار العربية ومقاصد الخطاب والتأني بالسياسة البيانية إلى هذه المقاصد ، فزعموا به المزاعم السخيفة ، وأحالوه إلى النقص والوهن ، وقالوا : إن هذا التكرار ضعف وضيق ، وهو أخزاهم الله – كان أروع وأبلغ عن الفصحاء من أهل اللغة والمتصرفين فيها ،ولو أعجزهم أن يجيئوا بمثله ما أعجزهم أن يعيبوه لو كان عيباً "[٢]

ثانيا:أن القرآن الكريم يذكر من القصة الأحداث التي تتفق مع سياق المعاني الواردة في السورة ، وإذا كرر القرآن حلقة من القصة فإنه عادة ما يورد فيها شيئاً جديداً لم يذكره من قبل ويحدث في ألفاظها بعض التعديل مما تطلبه العبرة المقصودة من ذكر القصة [٣].والذين لا يمعنون النظر في هذه المكررات ولا يتدبرون أسرارها قد يجدون فيها تكراراً لا داعي له ، وليست الحقيقة كذلك ،فلكل تركيب أو آية مكررة موقعه في سورته وسياقه الذي ورد فيه ، ولكل

---

١) يخلون أي يتركونه بلا معارضة ، والتخلية : الترك كما جاء في المصباح المنير ص ١٨١ ، دار الفكر .

٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص٢٠٠، دار الكتاب العربي ١٤١٠ .

٣) القرآن وعلم النفس د / محمد عثمان نجاتي ص ١٦٥ ط دار الشروق – الثالثة ١٩٨٧

تكرار علاقته بموضوع سورته وسوابقه ولواحقه في السورة نفسها ، وكذلك ما يحدث فيه من تغيير لفظ بزيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير ... الخ ، كل ذلك يناسب وسياقه الذي ورد فيه بلا ريب ، ولا يظهر ذلك إلا ، بالدرس السياقي المتدبر[١].

فالقرآن إذاً لا يتناول القصة كلها – غالباً – إنما هو تكرار لبعض حلقاتها ومعظمه إشارات سريعة لموضع العبرة فيها ، أما جسم القصة كله فلا يتكرر إلا نادراً والمناسبات خاصة في السياق، وحين يقرأ الإنسان هذه الحلقات المكررة ملاحظاً السياق الذي وردت فيه يجدها مناسبة لهذا السياق تماماً في اختيار الحلقة التي تعرض هنا أو تعرض هناك وفي طريقة عرضها كذلك[٢] يقول عبد الكريم الخطيب : والدعوى التي ندعيها لداعية التكرار في القصص القرآني وفي كل تكرار في القرآن تختلف فيه الصور للحدث الواحد هي أن هذه الصور يكمل بعضها بعضا ، وأنها في مجموعها تعطي صورة واضحة كاملة مجسمة أو شبه مجسمة للحدث ، وأن ما يبدو من أنه اختلاف بين المقولات في الواقعة الواحدة أو الحدث الواحد ليس إلا تجميعاً لمتناثر الأقوال عن هذه الواقعة أو ذلك الحدث[٣] .

إن عرض قصة ما في سورة ماله سياقان أساسيان:-

الأول : سياق السورة التي تعرض فيها القصة بما لها من ارتباط تام بموضوعات تلك السورة . **والثاني** : بيان القصة نفسها حيث تكون الحلقة المعروضة إحدي حلقات القصة في القرآن الكريم كله[٤] فإذا عرضت السورة

---

١) ظاهرة التكرار بين النحاة والبلاغيين السيد خضر ص١٣٣ رسالة دكتوراة كلية الآداب جامعة طنطا ١٩٩٧

٢) التصوير الفني في القرآن الكريم لسيد قطب ص ١٢٨ دار المعارف ط السادسة ١٩٧٥

٣) القصص القرآني في مفهومه ومنطوقه لعبد الكريم الخطيب ص ٢٣٤ ط : دار المعرفة – بيروت .

٤) ظاهرة التكرار بين النحاة والبلاغين ص ١٩٨ .

لمجموعة من القصص فإنها تعرضها من زاوية رؤية أساسية تركز علي هدف من أهداف القصص القرآني وكأن السورة في ذاتها وحدة والقصة وحدة فيها ، لها اتساقها مع بقية القصص في ذات السورة واتساقها مع زوايا أخرى من القصة ذاتها في مواقع أخرى من القرآن .

ثالثاً : لقد كان القصص يعاد ويتكرر في القرآن ليثبت الله به قلب الرسول – صلي الله عليه وسلم – وقلوب المؤمنين ويشد من أزرهم ، وليرسخ في نفوسهم عقيدة الإسلام الناشئة ، فهم يمضون في سبيل الله الذي سلكه من قبلهم مؤمنون كثيرون منهم من قتل أو تعذيب أو طرد .. الخ ، كل ذلك في سبيل الله وهم كأولئك لا بد أن يواجهوا مثل ذلك الحال ، والعاقبة للمتقين الصابرين ، لقد كان في تكرار القصص القرآني أهمية عظمي في بناء الجيل الأول الذي تحمل أعباء الدعوة ، يقول القاضي عبد الجبار : وربما قالوا في قصص الأنبياء : لم كرره الله تعالي ؟ وجوابنا أنه تعالى أنزل ذلك تسلية للرسول – صلى الله عليه وسلم – فيما كان المشركون يأتون به ، فكان ينزل مرة بعد مرة ليسليه في حال بعد حال ، ولأن التالي يعتبر بذلك اعتباراً بعد اعتبار"[١].قال ابن الجوزي : فإن قيل: ما الحكمة في تكرار القصص والواحدة قد كانت تكفي ؟ فالجواب : أن وفود العرب كانت ترد على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – للإسلام فيقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن ، فيكون ذلك كافياً لهم ، وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة ، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثناة ومكررة لوقعت قصة موسي إلى قوم وقصة عيسى إلى قوم ، وقصة نوح إلى قوم وقصة لوط إلى قوم ، فأراد الله بلطفه ورحمته أن

---

١) تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار المعتزلي ص ٤٤٥ ط دار النهضة الحديثة– بيروت .

يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ويلقيها في كل سمع ويثبتها في كل قلب ، ويزيد الحاضرين في الأفهام .[١]

رابعاً : أن القصة الواحدة كلما كررت كان في ألفاظها في كل موضع زيادة ونقصان وتقديم وتأخير ، وأتت على أسلوب غير أسلوب الأخرى ، فأفاد ذلك ظهور الأمر العجيب في إخراج المعنى الواحد في صور متباينة في النظم ، وجذب النفوس إلى سماعها لما جبلت عليه من حب التنقل في الأشياء المتجددة واستلذاذها بها ، وإظهار خاصة القرآن حيث لم يحصل مع تكرير ذلك فيه هجنة في لفظ ، ولا ملل عند سماعه ، فباين ذلك كلام المخلوقين[٢] .

خامساً : الاهتمام بشأن القصة لتتمكن عبرها في النفس فضل تمكن ، فإن التكرار من طرق التأكيد وأمارات الاهتمام ، واختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام وتبرز معان أخري في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال[٣].

سادساً : أن الحلقات تجيء مكررة في الظاهر ، لتحمل في ثناياها كثيراً مما خفي على أهل الكتاب من تصوير القدرة الإلهية الفائقة ، والتصرف المطلق لله في هذا الكون الفسيح ، وبيان تغيير الممالك والمعالم والأمم من حال إلى حال ومن عز إلى ذل ، ومن بأس إلى نعيم ليعرفوا أن الدنيا ليست مما يبقى أو يدوم ، ولن يخلد فيها أحد ، ودوام الحال من المحال ، ولكل بداية نهاية ، ونهاية كل حركة إلى سكون .

---

١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٧ / ١٣ دار الكتب العلمية – بيروت ، وأصل الجواب من كلام ابن قتيبة في كتابه مشكل القرآن ص ٢٣٤ .

٢) الإتقان (٣ / ٢٠٤ – ٢٠٥) .

٣) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ٣٦١ ، ٣٦٢ – الدار السعودية للنشر– ١٩٧٢ م

سابعاً : بيان معجزات الرسل الكرام ، كل ومعجزته ، وكل وعصره، وكل وحضارته ، وكل وعلمه وثقافته [١] وبهذا نرى أن الله تعالى كرر بعض هذا القصص،لأن في أغراضه ومقاصده معان جليلة وفوائد سامية يحرص القرآن دائماً علي ذكرها لتكون ماثلة أمام أعين المسلمين بكل لون وأسلوب بالإضافة إلى بيان إعجاز القرآن الكريم في التعبير والقدرة على تنوع الأساليب، وفي كل ذلك دلالة بينة علي أن القرآن حقا منزل من عند الحكيم جل وعلا ، ودليل ساطع على قدرة الإله الحكيم ، لذلك لن يستطيع أحد مهما أوتي من بلاغة وفصاحة أن يأتي بمثل ما أتي به القرآن من التكرار في هذا القصص المعجز ، فسبحان الذي أنزل كتابه تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة للمؤمنين

ومما تقدم نستنتج أن للتكرار أهدافاً متعددة وحكماً بالغة نراها من خلال سياق القصة التي ذكرت أكثر من مرة ، يؤكد ذلك الإمام البقاعي عند حديثه عن مناسبات الآيات في مقدمة كتابه " نظم الدرر " فيقول : ويتبين لك أسرار القصص المكررات وأن كل سورة أعيدت منها قصة فلمعنى دعت إليه تلك السورة ، استدرك عليه بتلك القصة غير المعنى الذي سيقت له في السورة السابقة ، ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض ، وتغيرت النظوم بالتأخير والتقديم والإيجاز والتطويل مع أنه لا يخالف شيء من ذلك أصل المعنى الذي تكونت به القصة "[٢]

وفي ختام حديثنا عن حكمة التكرار في القصص القرآني نود أن نلفت النظر إلى أمرين :- **الأول** : أن بعض القصص القرآني ليس به تكرار مطلق، وإنما القصة حلقات تحوي كل منها جوانب وأجزاء ، وإشارات غنية أو وعظية أو أخلاقية يقتضيها السياق لنسأ أو تأخير، أو مجمل آخر بيانه ، أو خطاب

---

١) الوحدة الفنية في القصة القرآنية لمحمد الدالي ص ١٢١ ط آمون للطباعة والنشر القاهرة ط أولى ١٩٩٣

٢) نظم الدرر للبقاعي (١ / ٢) دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٥ م .

قد حال بينه وبين أوله خطاب غيره ، أو مخصوص من عموم ، أو حكم عام لخاص ، أو مداخلة معنى في آخر ، فالذين يتوهمون أن ثمة تكراراً نقول : الموضوع واحد والقصة بنيان حي وجسم ينبض ، ووحدة الموضوع متمثلة ، والوحدة الفنية قائمة ، وكل حلقة من حلقات القصة صورة ناطقة تضيف شيئاً جديداً يرتبط بحالة خاصة أو موقف معين مقدر لها اقتضته علة تدور معه وجوداً وعدماً [١] .

الثاني : أن كل قصة ذكرت أكثر من مرة في أكثر من سورة إنما يتناسب الهدف من ذكرها في كل سورة بطريقة معينة والمعاني التي أبرزتها ، والقضايا التي عالجتها مع ما تهدف إليه تلك السورة وما تدور حوله من أغراض ، كما أن القصص حينما تذكر في أي سورة تتناسب كذلك تمام المناسبة ، وتتلاحم أشد التلاحم مع ما يسبقها ويلحقها من الآيات ، فنرى الربط والإحكام بادياً بين آيات القصة وبين آيات السورة ، ونرى حسن التخلص وبراعة الانتقال من مقصد إلى مقصد سواء كان الانتقال عن القصة أو إليها بيِّناً أحلى ما يكون البيان [٢] .

وأخيراً : فإن ما ذكرناه من أسرار التكرار وحكمه ليس حصرا واستيفاءا لأن الإنسان أي إنسان مهما أوتي من العلم فإنه لا يستطيع حصر الأسرار التي بسببها كررت القصص القرآنية .

رابعا : عرض آيات البشرى في قصة إبراهيم عليه السلام بإيجاز

لقد قص القرآن الكريم آيات البشرى في قصة إبراهيم- عليه السلام- في أربع حلقات تختلف في نظمها وما تتضمنه من وقائع وأحداث بحيث

---

١) الوحدة الفنية في القصة القرآنية ص ١٤٧ .

٢) المرجع السابق ص: ١٤٩

تفصل هذه الحلقات القصة كاملة مع استقلال كل حلقة منها مع الإفادة . وقد وردت هذه الحلقات في أربع سور مكية هي حسب ترتيب النزول كما يلي :-

الأولي في سورة هود الآيات(٦٩ - ٧٦) **الثانية** في سورة الحجر الآيات (٥١ -٦٠)

الثالثة في سورة الذاريات الآيات(٢٤- ٣٤) **الرابعة** في سورة العنكبوت الآيات (٣١ - ٣٢) وجاءت هذه الحلقات في طولها على نفس الترتيب السابق تقريباً ، فأطول هذه الحلقات هي التي وردت في سورة هود تليها التي وردت في سورة الحجر وتتساوي معها التي جاءت في سورة الذاريات ثم تأتي أقصر الحلقات في آخر السور المكية ، وهي سورة العنكبوت .وآيات البشرى في هذه القصة مع وجازتها - قد جمعت في طياتها بين أسباب الفصاحة وأركان البلاغة والأسلوب المعجز من الحذف والإضمار ، والتأكيد والتنوع ، وإصابة الصواب في الاختصار والإسهاب ، والمحافظة على الفصل والوصل، والتقديم والتأخير على ما سيأتي بيانه في البحث فهي بحق صورة رائعة من روائع الإعجاز القرآني الحكيم ، بالإضافة إلى أنها زاخرة بالعبر والعظات والدروس المستفادة .

وبعد ، فهذا تمهيد أردت من خلاله إعطاء القارئ نبذة مختصرة عن تعريف البشرى،ومفهوم القصة لغة، مع ذكر بعض الفوائد والحكم من تكرار القصص في القرآن ،ومنه ننتقل إلى آيات البشرى في هذه القصة المباركة، حيث نجلو بعض جوانب الإعجاز القرآني فيها،ونتدارس آياتها دراسة تحليلية،مبرزين المقارنة بين نظمها مجتمعة للوقوف على ما فيها من تشابه وتنوع ،باحثين عن أسرار ذلك ،مختتمين البحث بالكشف عن ما في الآيات من أسرار البلاغة، فإلى ذلك والله المستعان وعليه وحده التكلان .

المبحث الأول تفسير آيات البشرى

المطلب الأول(مجيء الرسل بالبشري)

قال تعالى "**وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ**"

بين يدي الآيات :

هذه هي الحلقة الأولى من الحلقات التي تحكي مجيء رسل الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام لتبشيره بالولد وما دار بينهم وبينه ، وتبين موقف امرأته من البشرى ورد الملائكة عليها . وقد وردت قصص الأنبياء في سورة هود مرتبة ترتيباً زمنياً حيث ذكرت قصة نوح مع قومه ، وتلتها قصة هود مع قومه عاد، وتبعتها قصة صالح مع قومه ثمود ، ثم جاءت قصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة. وقصته بمثابة تمهيد لقصة لوط عليه السلام مع قومه نظرا لما بينهما من صلة الدم والقرابة فلوط ابن أخيه وآمن به ، وقصته مع قومه جرت عقيب حديث الملائكة مع إبراهيم عليه السلام من غير فاصل ؛ إذ بشروا إبراهيم بالولد ، وأخبروه بما أرسلهم الله به من عذاب قوم لوط ، وجادلهم إبراهيم في أمر هؤلاء القوم ، ثم خرجوا من عنده متوجهين إلي لوط فنزلوا عليه وجرى بينهم وبينه ما جرى مما قصه القرآن المجيد فذكر قصة إبراهيم عليه السلام مع عدم اشتمالها علي أخبار المكذبين وعذابهم كما في القصص السابقة واللاحقة لأنها كما ذكرنا بمثابة تمهيد لقصة لوط عليه السلام

وذكر جرائم قومه وما نزل بهم من عذاب شديد علي نمط غير مسبوق وفي ذلك أعظم موعظة ومزدجر ، كما أن في قصة إبراهيم ردا على المشركين الذين تحدوا الرسول- صلى الله عليه وسلم - بما حكي عنهم في أول السورة من قولهم "**لَوْلاَ أنزل علَيْكَ كنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ ملك**" وذلك لما فيها من ذكر مجيء الملائكة إلي إبراهيم عليه السلام ومحاورتهم معه ، وكأن الآية تقول للمشركين إن طلبكم مجيء ملك مع الرسول - صلي الله عليه وسلم - ليس عزيزاً على الله فقد جاءت الملائكة كثيراً إلى الرسل ولكن نزولهم مرهب ، وأمرهم عند المكاشفة مرعب [١]

البداية :تبدأ هذه الحلقة من قصة إبراهيم عليه السلام بقوله **(وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى)** وهي بداية مختلفة عن بداية قصتي هود وصالح المحكيتين قبلها ، كما تختلف عن بداية قصة شعيب الآتية بعدها ، ولعل السر في ذلك أنه لما كان المقصود من السورة الكريمة ذكر صنيع الأمم السالفة مع الرسل المرسلة إليهم ولحوق العذاب بهم بسبب ذلك ولم يكن جميع قوم إبراهيم عليه السلام ممن لحق بهم العذاب بل إنما لحق بقوم لوط منهم خاصة تغير الأسلوب المطرد فيما سبق من قوله تعالى" **وَإِلى عَاد أَخَاهُم هُوداً**" ثم رجع إليه بعد ذلك حيث قال : "**وَإِلى مَدْيَنَ أَخَاهُم شُعَيْباً** "[٢] وفي تشابه هذه البداية مع بداية قصة نوح عليه السلام" **وَلَقَد أَرْسَلنَا نُوحاً** "إشارة إلى ما بينهما من مماثلة في كون كل منهما من أولي العزم من الرسل وجدال كل منهما في شأن الكافرين شفقة عليهم ورجاء لنجاتهم حيث تكلم نوح في شأن ابنه" **فَقَالَ ربِّ إن ابْنِي مِن أَهْلِي**" وتكلم إبراهيم في شأن قوم لوط كما في الآيات التي نحن بصدد تحليلها .[٣]

---

١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٩ /٣٢٨) دار الكتاب الإسلامي- القاهرة .

٢) تفسير أبي السعود(٤/ ٢٢٤) .

٣) نظم الدرر (٩ /٣٢٨).

ودخلت " **قد**" هنا ؛لأن السامع لقصص الأنبياء يتوقع قصة بعد قصة ،وقد للتوقع فجاءت لتؤذن بأن السامع في حال توقع لذلك ، ودخلت عليها اللام لتأكيد الخبر[١] لاشتماله علي أمر عجيب هو مجيء الرسل إلي إبراهيم وتحاورهم معه . والمقصود بالرسل : الملائكة الذين أرسلهم الحق تعالي إلي إبراهيم عليه السلام وفي إضافتهم إلي نون العظمة تشريف لهم ودلالة علي عظم مكانتهم المستمدة من كونهم رسل الله تعالى ، وأسند مطلق المجيء بالبشري إليهم دون الإرسال لأنهم لم يكونوا مرسلين إليه عليه السلام ، بل إلى قوم لوط لقوله تعالى "إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ " وإنما جاءوه لداعية البشرى[٢] واختلف في المراد بالبشرى هنا علي وجهين :- الأول : أنها البشرى بالولد . الثاني : أنها البشري بهلاك قوم لوط وسلامة لوط عليه السلام [٣] وأرى أن الوجه الوجيه هو الأول لأنه الأنسب بالإطلاق والسياق؛ إذ إن آيات القصة في سورة هود والحجر والذاريات والعنكبوت تؤكد تقدم البشارة بالولد أولا، ثم تبرز مجادلة إبراهيم الخليل في شأن هؤلاء القوم ، وهذا هو الظاهر

تحية وحوار: وبعد هذه البداية التي أثبتت مجيء الرسل إلي إبراهيم عليه السلام تذكر الآيات ما دار بينهم وبينه وأول ذلك إلقاؤهم التحية عليه ورده على هذه التحية " قالوا سلاما قال سلام " واختلف العلماء في المراد بسلام الملائكة ، فقيل المراد بالسلام : التحية المعروفة بلفظ السلام أي نسلم عليك سلاماً ، ويحتمل أن يكون السلام نوعاً من أنواع الكلام وهو كلام سلم به المتكلم من أن يلغوا أو يأثم، فكأنهم لما دخلوا عليه فقالوا حسنا سلموا به من الإثم ، وعلى هذا يكون المراد بالسلام : التحية بالمعنى ، أي كان دعاء لإبراهيم بالسلامة والطمأنينة ، فقوله : " سلاماً " مفعول، ويحتمل أن يكون

---

١) مفاتيح الغيب للإمام الرازي(٦ / ٣٧١) دار إحياء التراث العربي

٢) روح المعاني للألو سي ١٢ / ١٣٩ دار الفكر

٣) انظر الكشاف ٢ / ٢٢٤ ، البحر المحيط ٥ / ٣٤١ .

السلام نوعاً من أنواع الكلام وهو كلام سلم به المتكلم من أن يلغوا أو يأثم، فكأنهم لما دخلوا عليه فقالوا حسنا سلموا به من الإثم ،وعلى هذا يكون المراد بالسلام : التحية بالمعنى أي كان دعاء لإبراهيم بالسلامة والطمأنينة ، فقوله: " سلاماً " مفعول مطلق لفعل مقدر أي سلمت سلاماً وحذف الفعل للدلالة على سرعة التحية والمبادرة بها [١] ولا شك أن سلام الملائكة أفاد التجدد والحدوث لأنه جملة فعلية ثم أجاب إبراهيم عليه السلام علي الملائكة ورد عليهم التحية بأحسن منها فقال" سلام " أي عليكم سلام أو سلام عليكم، وفي هذا إرشاد للقادمين بإلقاء التحية ،وتعليم للمستقبلين برد التحية بأحسن منها كما قال تعالى" **وَإِذا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فحيُّوا بأَحْسَنِ منهَا أوْ رُدُّوهَا** "**(النساء٨٦)** فسلام إبراهيم أفاد الدوام والاستمرار .

وبعد أن رد إبراهيم التحية أسرع إلي أهله وعجل بإعداد الطعام لضيوفه بناء علي ما جبل عليه من كرم ومعرفة بواجبات الضيافة " فما لبث أن جاء بعجل حنيذ " أي فما أبطأ إبراهيم عليه السلام في المجيء بعجل مشوي علي الحجارة المحماة يقطر دسمه[٢] وأصل "حنيذ " منضج على الحجارة ، قال ابن فارس: الحاء والنون والذال أصل واحد وهو إنضاج الشيء ، يقال: شواء حنيذ أي منضج وذلك أن تحمي الحجارة وتوضع عليه حتى ينضج[٣] .

وفي دخول الفاء على" ما " إشارة إلي إسراعه وتعجيله بالذهاب إلى أهله وإعداد الطعام، وفي مجيئه بالعجل كله مع أنهم بحسب الظاهر يكفيهم بعضه دليل على أنه من الأدب أن يحضر للضيف أكثر مما يأكل ،وإنما جاء عليه السلام بالعجل لأن ماله كان البقر وهو أطيب ما فيها ، وكان من دأبه

---

١) انظر مفاتيح الغيب ١٠ / ١٧٤ ، فتح القدير ٥ / ٨٧

٢) ينظر الكشاف ٢ / ٢٨٠، أنوار التنزيل ص:٣١٣ ، المحرر الوجيز٣ / ١٨٨ .

٣) معجم مقاييس اللغة مادة حنذ

عليه السلام إكرام الضيف ولذا عجل بالقرى [١] وقرب إليهم الطعام ، فلم يمدوا أيديهم إليه "فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة " ورأى إن كانت بصرية فجملة " لا تصل" حال ، وإن كانت علمية فجملة "لاتصل " مفعول ثان ، والظاهر الأول ، وفيه دليل علي أن من أدب الضيافة النظر إلي الضيف هل يأكل أولاً ، ويكون بتلفت ومسارقة لا بتحديد النظر؛ لأن ذلك مما يجعل الضيف مقصراً في الأكل ، أي لما شاهد منهم ذلك[٢]" **نكرهم**" أي اشتدت نكارته لهم ، وانفعل لذلك ، ونكر أبلغ من أنكر، وقيل : نكر فيما يري ، وأنكر فيما لا يرى من المعاني[٣] وإنما أنكرهم لأنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف ولم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجيء بخير[٤] .

ولما رأي الرسل ما ظهر علي إبراهيم عليه السلام من الخوف" قالوا لا تخف إنا أرسلنا قوم لوط " استئناف في معني التعليل للنهي عن الخوف ، وذهب أبو السعود إلي أنها ليست كذلك لما قالوها جوابا عن سؤال صريح ورد في سورة الذاريات **(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ)** ولم يصرح به هنا اكتفاء بما هناك[٥] وتعقب بأن ذلك لا يقدح في كونها استئنافا تعليلياً لجواز أن يكونوا قالوا ذلك على معني التعليل للنهي عن الخوف ، ولم يذكروا العذاب الذي أرسلوا به ولا نوعه هل هو استئصال أولا ، فسألهم بعد ذلك عن الأمر العظيم الذي أرسلوا من أجله كما ورد في الذاريات[٦] .

---

١) روح المعاني ١٢ / ١٤١

٢) المصدر السابق ١٢/ ١٤١

٣) انظر: نظم الدرر ٩ / ٣٣٠ ،البحر المحيط ٥ / ٢٤٢ .

٤) تفسير أبي السعود ٤ / ٢٢٤ .

٥) المصدر السابق ٤/ ٢٢٥

٦) روح المعاني ١٢/ ١٤٢

حوار مع امرأته:وتنتقل الآيات للحديث عن امرأته سارة وما كان من أمرها في ذلك " وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب" واختلف في المقصود بالضحك علي قولين :**الأول** : أن المراد به الضحك المعروف ،لكن اختلف في سبب ضحكها على وجوه : **الأول** : أنها ضحكت سروراً بزوال الخوف **الثاني** : أنها ضحكت سروراً بالبشارة بالولد ، ويكون في الآية تقديم وتأخير **الثالث** : أنها ضحكت من شدة خوف إبراهيم من ضيافة وقالت : من ماذا يخاف إبراهيم وإنما هم ثلاثة وهو بين غلمانه وأهله **الرابع** : أنها ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم . **الخامس** : أنها ضحكت من إمساك الضيوف عن الأكل [١] وقد رجح الإمام الطبري الوجه الرابع لأنه ذكر عقيب قولهم " **لاَ تخف إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَي قَوم لُوط** "[٢]على حين نجد أن الإمامين الرازي والألو سي قد استظهرا الأول وهو أنها ضحكت سروراً بزوال الخوف[٣] **قلت** : يمكن الجمع بين هذين القولين – الأول والرابع – فنقول : إن الملائكة لما قالت لإبراهيم لا تخف إنا مرسلون إلى قوم لوط فرح بذلك واطمأنت نفسه عندئذ ضحكت امرأته سروراً بزوال خوفه، وعجبت من غفلة قوم لوط عن نزول العذاب بهم والله أعلم .

الثاني : أن معنى ضحكت : حاضت ، واستدل أصحاب هذا القول بما ورد في كتب اللغة أن ضحكت معناه حاضت[٤] بيد أن هناك من ضعف هذا المعنى وأنكر مجيء ضحك بمعني حاض مستدلاً بقول الفراء : لم أسمعه من ثقة وإنما هو كناية[٥] وقد عقب صاحب الانتصاف علي ما ذهب إليه صاحب

---

١) ينظر: جامع البيان ١٢ / ٤٥، زاد المسير ٤ / ٩٩ ، تفسير الخازن ٢/ ٢٤٢

٢) جامع البيان ١٢/ ٤٥

٣) ينظر: مفاتيح الغيب ٦/ ٣٧٤ ،روح المعاني ١٢/ ١٤٢

٤) الكشاف ٢ / ٢٢٥ .

٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢

الكشاف من أن ضحكت بمعني حاضت قال : ويبعد هذا التأويل أنها قالت بعد ذلك : قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً " فلو كان حيضها قبل بشارتها لما تعجبت ، إذ لا عجب في حمل من تحيض ، والحيض في العادة معيار علي إمكان الحمل[١] ثم أكد بعض المفسرين أن استعمال الضحك بمعني الحيض هو استعمال شاذ غير مألوف، وحمل القرآن على هذا الشاذ مما لا يليق ببيانه وبلاغته ،لأنها لو كانت قد حاضت لما واجهت ما بشرها به رسل الله بهذا الإنكار الصريح[٢] والذي أراه صحيحاً في هذا المقام – والله أعلم – هو القول الأول وهو أن معنى ضحكت هو الضحك المعروف لما يلي :- **أولاً:** الأولى أن يحمل اللفظ على ظاهره

ثانياً : أن الضحك قد سبق البشارة فكان الأولى أن يكون بعدها .

ثالثاً : أن البشارة بالولد قد جاءت على غير الطبيعة البشرية إذ هي وزوجها طاعنين في السن ،والحيض لا يأتي إلا في الحياة الطبيعية أي في سن الشباب قبل اليأس، ولكن البشرى بالولد جاءت على غير الطبيعة البشرية .

رابعاً : أن خطاب الناس وإفهامهم بما هو معلوم عندهم أولى من التكلف، والتأويل البعيد الغامض عند بعضهم ، فالأقرب أن يكون هو الضحك المعروف وهذا ما يتبادر إلي الذهن ويساير المنطق والعقل .

وتمضي الآيات تبين موقفها من هذه البشارة العظيمة "قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب " لقد أخرجتها الفرحة الغامرة بهذا البشرى العظيمة عن طبيعتها ،وهي وإن كانت تتمني الولد إلا أنها تعلم أن العادة لم تجر بأن تلد امرأة في مثل سنها ، ومن ثم كان منها هذا

---

١) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنير ٢/ ٢٥٢

٢) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ٣ / ١١٧١دار الفكر العربي .

العجب ،وقد صورت الآية تعجبها الشديد عن طريق ثلاثة أساليب : الندبة والاستفهام والخبر فالندبة في " يا ويلتي " وأصل الويل : الخزي، ثم شاع في كل أمر فظيع، وهذه الكلمة خف استعمالها علي أفواه النساء إذ طرأ عليهن ما يعجبن منه والمراد بها هنا التعجب لا معنى الويل لأنه لا يناسب المقام ، كما يدل عليه الاستفهام وقولها " إن هذا لشيء عجيب "[١]

والاستفهام في أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا " يحمل معنى التعجب والاستبعاد المعتاد ، ومن موجبات التعجب أنها عجوز عقيم كما صرح بذلك في الذاريات ،وأن زوجها شيخ كبير يقل معه احتمال الإنجاب وإن كانت لا تنافيه ،وفي اسم الإشارة تمييز له أكمل تمييز بالإشارة الحسية ووصف لحاله من الشيخوخة وصفا مرئياً مشاهداً ، وهذا أبلغ في وصفه مما لو قيل وبعلي شيخ[٢] وإنما قدمت بيان حالها علي بيان حاله عليه السلام ؛لأن مباينة حالها لما ذكر من الولادة أكثر؛ إذ ربما يولد للشيوخ من الشواب ،أما العجائز فلا ، ولأن البشارة متوجهة إليها صريحاً ،ولأن العكس في البيان ربما يوهم من أول الأمر نسبة المانع من الولادة إلى جانب إبراهيم عليه السلام وفيه ما لا يخفي من المحذور[٣] وأما الخبر فهو" قوله" إن هذا لشيء عجيب " واسم الإشارة يعود إلى ما ذكر من حصول الولد من هرمين مثلنا، أو إشارة إلى الولادة أو البشارة بها، والجملة تعليل بطريق الاستئناف التحقيقي للتعجب والاستبعاد المستفاد من طريق الاستفهام وتأكيد له وتعجبها واستبعادها ليس بالنسبة لقدرة الله تعالى ولكنه بالنسبة إلى ما جرت به العادة وتواتر بين الناس [٤].

---

١) تفسير القرطبي ٩ / ٧٢ .

٢) البحر المحيط ٣ / ٤٦٦ .

٣) تفسير أبي السعود ٤ / ٢٢٦ .

٤) روح المعاني ١٢ / ١٥٠ .

وعجبها الشديد وتعبيرها عنه بصور مختلفة يثير سؤالاً في النفس عن موقف الملائكة منها ، وجوابهم علي تعجبها ، وقد جاء جوابهم متضمناً ثلاثة أساليب : استفهام وخبرين . فالاستفهام في قوله " أتعجبين من أمر الله " إنكاري تعجبي ،أي لا ينبغي لك أن تعجبي من شيء هو من أمر الله تعالى الذي لا يعجزه شيء لأنك معتادة علي رؤية الخوارق والمعجزات في بيت النبوة ، والعجب إنما يكون ممن خفي عليه مثل ذلك[١] وأما الخبر الأول فقوله تعالي " رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت " خبر مستأنف علل به إنكار تعجبها كأنه قيل: ليس المقام مقام تعجب، فإن الله على كل شيء قدير ولستم يا أهل بيت النبوة والكرامة والزلفى كسائر الطوائف، بل رحمته المستتبعة كل خير، الواسعة لكل شيء وخيراته المتكاثرة الفائضة منه بواسطة تلك الرحمة الواسعة لازمة لكم لا تفارقكم [٢]

والمتأمل في الآية الكريمة نجد أنه جاء الخطاب في الاستفهام موجها إليها وحدها لأنها كانت المتعجبة ، ثم انتقل الكلام بعد ذلك إلي خطاب الجميع إشعاراً بعموم الحكم علي أهل البيت ، وفيه مع ذلك تلوين الأسلوب وتنويع له، ووجه الخطاب إلى جمع المذكر تغليباً كما هو متبع في الأساليب. والخبر الثاني قوله " **إنه حميد مجيد** " وهو تذييل يعلل الخبر الأول المتضمن إفاضة الله عليهم رحمته وبركاته " حميد "أي فاعل ما يستوجب به الحمد ،ومجيد " واسع الخير والكرم والإحسان [٣] .

جدال إبراهيم عن قوم لوط :

وبرد الملائكة علي امرأة إبراهيم ينجلي الموقف لدى إبراهيم وأهل بيته، ويبدأ موقف جديد هو جدال إبراهيم في شأن قوم لوط " فلما ذهب عن إبراهيم

---

١) تفسير المنار ١٢ / ١٠٨ .

٢) تفسير أبي السعود ٤ / ٢٢٦ .

٣) أنوار التنزيل ص ٣١٣ .

الروع وجاءته البشري يجادلنا في قوم لوط " والفاء لربط أحوال إبراهيم عليه السلام ببعض غب انفصالها بما ليس بأجنبي من كل وجه، بل له مدخل تام في السباق والسياق[١] وهو الحوار مع امرأته بشأن الولد و" **لما**" حرف وجود لوجود تقتضي جملتين وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما[٢] **والروع** : الخوف والفزع يقال : روعت فلانا ورعته : أفزعته وأخفته[٣] والمعنى : لما زال عنه ما كان أوجسه منهم من الخيفة ، واطمأنت نفسه بالوقوف على جلية أمرهم وعرفان سبب مجيئهم أخذ يجادل رسلنا في حال قوم لوط وشأنهم ومصيرهم لعلهم يرجعون عن غيهم[٤] وجواب " لما "قوله" **يجادلنا في قوم لوط** " والأصل : جادلنا لأن جواب لما يكون فعلاً ماضياً، وإنما قيل : يجادلنا بصيغة المضارع بتصوير حالة الجدال كأنها حاضرة ، وللإشارة إلى تكرر المجادلة أي جادلنا فيهم جدالاً كثيراً[٥] وقيل: جواب لما محذوف وقوله " **يجادلنا** " كلام مستأنف دال على الجواب والتقدير: قال كيت وكيت أو فطن لمجادلتنا [٦] والرأي الأول أظهر لأنه لا يحتاج إلي تقدير .

ومجادلته إياهم ذكرها القرآن في سورة العنكبوت في قوله تعالي : **(إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا** "وقد أفاضت كتب التفسير في الحديث عن هذا الجدال وتفصيل جوانبه نقلا عن التوراة[٧] والأولى الاقتصار على ما ورد في كتاب الله الحكيم ، ومنه نفهم أن المسألة لم تكن جدالاً كما تصوره كتب العهد القديم، وإنما كان سؤالاً منه عن مصير المؤمنين من قوم لوط قلقاً

---

١) تفسير أبي السعود (٤ / ٢٢٦) .

٢) مغني اللبيب لابن هشام ١ / ٢٨٠ .

٣) معجم مقاييس اللغة مادة روع .

٤) روح المعاني (١٢ / ١٥٣) .

٥) ينظر: تفسير المنار ١٢ / ١٠٨ ، نظم الدرر ٩ / ٣٣٣ .

٦) دراسات لأسلوب القرآن الكريم محمد عبد الخالق عضيمة ٢ / ٦٢٦ دار الحديث- القاهرة .

٧) انظر روح المعاني ١٢ / ١٠٣، وقصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص ٩٥ .

وخوفاً عليهم وهذا هو المناسب لجلال النبوة وتسليمها لأمر الله تعالى دون مناقشة .

ثم تبين الآيات الباعث على جدال إبراهيم عليه السلام في شأن قوم لوط وتبين أن الذي حمله على ذلك ما فطر عليه من رقة القلب والرأفة والرحمة والإنابة و" حليم "غير عجول على الانتقام من المسيء إليه و" أواه " كثير التأوه من الذنوب والتأسف علي الناس و" منيب " تائب راجع إلى الله بما يحب ويرضى[١].

الخاتمة :وتأتي خاتمة هذه الحلقة رداً حاسماً على إبراهيم عليه السلام في جداله عن قوم لوط " يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود" والنداء لشدة انتباهه وإيقاظه لتلقي الأمر الوارد عقيبه بالإعراض عن الجدال في شأن هؤلاء القوم والإعراض عن الشيء : الصد والانصراف عنه ، والإشارة بقوله " هذا " إلى الجدال والمحاورة في شيء مفروغ منه ، والأمر: ما قضاه الله وحكم به من عذابه الواقع بهم لا محالة ولا مرد له بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك[٢] وفي التعبير عن كل ذلك بالأمر؛ إشارة إلي أنه واجب النفاذ ولا راد له وما في لفظ " ربك "من معني التربية والرعاية يشير إلي أن أمره بالإعراض لا ينافي رحمته به ورعايته له ، وفي إضافة ضميره إلى الرب تشريف له ،وإشارة إلى ما يعرفه من صفات ربه الرحيم بعباده . ولما ذكر" إنه قد جاء أمر ربك "ولم يكن في هذا اللفظ دلالة على أن هذا الأمر بماذا جاء لا جرم بين الله تعالي أنهم آتيهم عذاب غير مردود ، أي عذاب لا سبيل إلي دفعه ورده [٣].وفي تنكير "**عذاب**" إشارة إلى فخامته وشدته وكونه عذاباً من نوع خاص لم يعهدوه وفي وصفه بـ " غير مردود " بيان لحتميته ونفاذه لا محالة وأنه لا يرد بجدال ولا بدعاء ولا بغيرهما .

---

١) ينظر: الكشاف ٢ / ٢٨٢ ، تفسير البيضاوي ص ٣١٣ .

٢) البحر المحيط ٥ / ٢٤٦ .

٣) مفاتيح الغيب (٦ / ٣٧٧) .

المطلب الثاني "نبأ ضيف إبراهيم "

قال تعالي **(وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ)** .

بين يدي الآيات :

هذه هي الحلقة الثانية من الحلقات التي تقص علينا نبأ إبراهيم عليه السلام مع الملائكة الذين أرسلهم الله إليه لتبشيره بالولد ،وإخباره بإنزال العذاب على قوم لوط وسورة الحجر تبدأ بوصف الكتاب الكريم وتقرير أمر النبوة ، وتنتقل إلى ذكر دلائل قدرة الله تعالي في الكون من خلق السموات والأرض ،وما فيهما من آيات ،وخلق آدم وتفصيل ما جرى بشأنه ،ثم تذكر أحوال القيامة ومصير الأشقياء والسعداء، وتتبع ذلك بذكر قصص الأنبياء لتعريف العرب بأحوال من يعرفونه ممن عصى وكذب الرسل وما حل بهم من عذاب ؛ليكون سماعها مرغباً في الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الأنبياء ،ومحذراً عن المعصية التي تهبط بأصحابها إلى الشقاء.

وتبدأ هذه القصص بقصة إبراهيم عليه السلام لأنه الجد الأعلى للعرب ،وهم يفخرون بالانتساب إليه ،وذكر قصته تجعلهم يعتبرون بما فيها من مواعظ ،لأنها قصة جدهم ،كما أنها تبشيرا لإبراهيم وتعذيباً لقوم لوط ، فهي بمثابة دليل علي الحكم السابق لها في قوله تعالى "**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ**)[1] كما أنها تدور حول حوار الملائكة

---

١) انظر مفاتيح الغيب (٧ / ١٥٠) ، روح المعاني (٨ / ٨٨ ، ٨٩) بتصرف .

مع إبراهيم عليه السلام ، وهذا مناسب لطلب العرب من رسول الله – صلي الله عليه وسلم – في أول السورة أن يأتيهم بالملائكة **قال تعالى" لَو مَا تأْتِينَا بالمَلائِكَةِ إِنْ كُنت مِنَ الصَّادِقِينَ** (الحجر:٧) وكأن القصة تقول لهم :إن الإتيان بالملائكة ليس مطلباً صعباً علي الله تعالي فقد أتت الملائكة إلي رسل الله تعالى ومنهم إبراهيم جدكم الأعلى[١] .

البداية :بداية هذه الحلقة معطوفة علي ما تقدمها من قوله تعالى" نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم " ومع كونها كذلك إلا أنها بداية فيها تشويق وتنبيه لما يأتي بعدها ، حيث لم يجر ذكر إرسال الرسل وحوارهم مع إبراهيم مباشرة، بل مهد لذلك بما يبعث الشوق في النفس لمعرفته وهو قوله " ونبئهم عن ضيف إبراهيم " والنبأ : الخبر ،ونبئهم : أي خبرهم إخباراً عظيماً[٢] وهذا الفعل يدل بمادته على وجود خبر هام ينبغي أن يقص ويستمع له فهو مشوق لما يأتي بعده ،ويدل بصيغة التشديد علي عظمة الخبر وأهميته وقدره .

والضيف : اسم يقال للواحد والجمع لأن أصله مصدر ضاف إذا مال، فأطلق على الذي يميل إلي بيت أحد لينزل عنده ،ثم صار اسماً ، فإذا لوحظ أصله أطلق علي الواحد وغيره ، ولم يؤنثوه ولا يجمعونه ،وإذا لوحظ الاسم جمعوه للجماعة وأنثوه للأنثى فقالوا أضياف وضيوف، وهو هنا اسم جمع [٣] وفي سبب تسميتهم ضيوفا قال العلماء : لأنهم كانوا في صورة الضيف ،حيث أضافهم إبراهيم عليه السلام ،أو لأنه حسبهم ضيوفاً ،فالتسمية على مقتضي الظاهر والحسبان[٤] وقيل:لأنه لما ظن إبراهيم أنهم إنما دخلوا عليه لطلب

---

١) نظم الدرر ١١ / ٦٥ .

٢) المصدر السابق ١١/ ٦٥

٣) التحرير والتنوير (٢٦ / ٣٥٧) .

٤) انظر الكشاف (٤ / ٢٩) ، تفسير النسفي (٤/ ٠ ١٨٥) .

الضيافة جاز تسميتهم بذلك ، وقيل: إن من يدخل دار الإنسان ويلتجىء إليه يسمي ضيفاً وإن لم يأكل[١] .

تحية وحوار

وبعد هذه البداية المشوقة يبدأ سرد الحوار الذي دار بين الملائكة وإبراهيم عليه السلام ،وفي قوله " دخلوا عليه " إشعار بأنهم جاءوا بلا مقدمات ودخلوا عليه دخولاً مفاجئاً غير متوقع ، كما أنه دخول مشوب بالاستعلاء ، لا كالدخول المعهود للضيوف علي حد ما يشير إليه قوله "عليه " وهذا مما زاد في خوفه بجانب كونه لا يعرفهم ،ولم يذكر رده عليهم ولا بقية القصة ؛ لأن المقصود هنا الترغيب والترهيب فاقتصر من القصة على ما يؤدي ذلك ، حيث فصلت القصة في موضع آخر[٢] ثم قال إبراهيم " **إنا منكم وجلون** " أي خائفون ، وكان خوفه لعدم معرفته بهم وامتناعهم عن الأكل ودخولهم عليه بلا مقدمات ، وفي التأكيد بإن تقوية لمضمون الجملة وتحقيق له ، وتقديم الجار والمجرور على الخبر لإفادة أن الوجل منهم لا من شيء آخر، وفيه أيضاً تشويق للخبر[٣]

ويجيبه الرسل مطمئنين قلبه مبشرين له بالولد " لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم " وإطلاق الوجل دون تقييده بالجار والمجرور" **منا** " كما ورد في خبره التعميم في نفي الوجل عنه سواء أكان منهم أم من غيرهم . ولما كان نهيه عن الوجل يثير سؤالاً عن سبب ذلك عللوا هذا النهي بقوله " إنا نبشرك بغلام عليم " فإن المبشر لا يكاد يحوم حول ساحته خوف ولا حزن كيف لا وهي بشارة ببقائه وبقاء أهله في عافية وسلامة زمان طويلاً [٤] وتأكيد الخبر

---

١) مفاتيح الغيب (٧ / ١٥٠) .

٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٥ / ٢٩٨ .

٣) ينظر: الكشاف ٢/ ٣٩٢ ،تفسير أبي السعود ٥/ ٨١

٤) روح المعاني (١٤ / ٦١) .

بإن لتحقيقه وتقويته لما يتضمنه من أمر سيكون مثار عجب لديه عند سماعه ،وليتلاءم خبرهم المؤكد مع خبره المؤكد ، وإيثار البشارة على غيرها من الألفاظ لما في هذا اللفظ السار من المسارعة بطمأنته ،والتعجيل بإدخال السرور على نفسه ، وفي مخاطبته بالبشرى مزيد مسرة له، ولأن الحوار كان معه[١].ويتصل الحوار فيرد إبراهيم عليه السلام على بشارة الملائكة " قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون " ورده يشتمل على استفهامين :-

الأول : أبشرتموني على أن مسني الكبر " أي أن الولادة أمر عجيب في العادة مع الكبر فيكون الاستفهام للتعجب ، ويجوز أن يكون للإنكار والمعنى : لا ينبغي أن تكون البشارة مع الحال المذكورة[٢]

والثاني : فبم تبشرون " والاستفهام للتعجب كأنه قال : فبأي أعجوبة تبشرونني ، ويجوز أن يكون للإنكار ،والمعنى : أنكم تبشروني بما هو غير متصور في العادة ، فبأي شيء تبشروني؟ يعني : لا تبشرونني في الحقيقة بشيء لأن البشارة بمثل هذا بشارة بغير شيء ، ويجوز أن تكون الباء للملابسة والاستفهام سؤال عن الوجه والطريقة ، يعني بأي طريقة تبشرونني بالولد والبشارة به لا طريق لها في العادة[٣].

ويرد الملائكة علي تساؤلات إبراهيم عليه السلام " قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين "والباء في بالحق للتعدية ، كما في بشرته بقدوم زيد ، فيكون المعنى : بشرناك بالأمر الواقع لا محالة ، بناء علي أن الاستفهام للتعجب ، أي أن المبشر به أمر لا بد من وقوعه فكيف يتعجب منه أو يكون المعنى : بشرناك باليقين الذي لا لبس فيه ، بناء على أن الاستفهام للإنكار أي أن المبشر به أمر محقق متيقن فكيف ينكر ، ويجوز أن تكون الباء للآلة

---

١) تفسير أبي السعود ٥ / ٨١ .

٢) ينظر الكشاف ٢ / ٣٩٢ ، حاشية الشهاب ٥ / ٢٩٨ ، روح المعاني ١٤ / ٦١

٣) ينظر الكشاف ٢ / ٣٩٢ ، روح المعاني ١٤ / ٦١ .

كما في ضربه بالسوط فيكون المعنى : بشرناك بطريق هو حق ، وهو أمر من له الأمر القادر على خلق الولد من غير أبوين فكيف بإيجاده من شيخ فان وعجوز عاقر ؟[١] .

وتعريف الحق وإطلاقه يشعر بأنه الحق الثابت المقطوع به الذي لاحق سواه في هذه القضية ، ورد الملائكة عند التحقيق ليس جواباً على استفهام إبراهيم عليه السلام لأنه استفهام غير حقيقي بل هو رد لكلامه وتعجبه[٢] ثم نهوه عن أن يكون من الآيسين بقولهم " فلا تكن من القانطين " والقنوط : اليأس ونهيهم له لا يدل على تلبسه بالقنوط ؛لأن النهي عن الشيء لا يدل على تلبس المنهي عنه به ولا بمقاربته [٣] فالنهي هنا على سبيل الإلهاب والتهييج حثا له على دوام التمسك بيقينه الثابت في أن الله تعالى لا يعجزه شيء .

وفي صياغة النهي عن هذه الصورة بدلا من أن يقول:فلا تكن قانطاً مثلاً ؛ إشعار بعدم قنوطه ،حيث لم يخبر عنه بالقنوط ، بل نهي عن أن يكون من جماعة القانطين وهو ليس داخلاً فيهم . ثم رد عليهم منكرا أن يكون من القانطين " **قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون** " والاستفهام إنكاري، أي لا يقنط من رحمة ربه إلا المخطئون طريق الاعتقاد الصحيح في ربهم فلا يعرفون سعة رحمته وكمال علمه وقدرته ، ومراده بذلك نفي القنوط عن نفسه على أبلغ وجه ، أي ليس بي قنوط من رحمته تعالي ، وإنما الذي أقول لبيان منافاة حالي لفيضان تلك النعمة الجليلة علي . وإنما كان رده أبلغ في نفي القنوط عن نفسه من أي أسلوب آخر لأنه نفاه عن طريق الحجة والبرهان حيث نفي القنوط عن غير الضالين وأثبته للضالين وبما أنه ليس من الضالين

---

١) ينظر أنوار التنزيل صـ٣٥٧ ، حاشية الشهاب ٥ / ٢٩٩، روح المعاني ١٤ / ٦٢ .

٢) التحرير والتنوير ١٤ / ٩٥ .

٣) البحر المحيط ٥ / ٤٥٩ .

فهو من غير القانطين وفي التعرض لوصف الربوبية والرحمة ما لا يخفى من الجزالة[١] لما فيهما من معاني التربية والعناية واللطف والشفقة ، وذلك مما ينافي القنوط .

ولما رد عليهم أبلغ رد وأحكمه وآكده ،وتحقق من البشرى وعلى أنهم رسل الله تعالى ، ورأى أن إتيانهم مجتمعين علي غير الصفة التي يأتي عليها الملك للوحي، كان ذلك سبباً لأن يسألهم عن أمرهم وشأنهم[٢] قال" **فما خطبكم أيها المرسلون** "والفاء في قوله فما " فصيحة مؤذنة بكلام محذوف ناشىء عن المحاورة الواقعة بين إبراهيم عليه السلام وبين ضيفه وهو من عطف كلام علي كلام متكلم آخر، والتقدير : إذا كنتم مرسلين من جانب الله تعالي فما خطبكم الذي أرسلتم لأجله ؟ [٣] وخطابه لهم عليهم السلام بعنوان الرسالة بعد ما كان خطابه السابق مجرداً عن ذلك مع تصديره بالفاء دليل علي أن مقالتهم المطوية كانت متضمنة لبيان أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة ،بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا، فكأنه قال عليه السلام إن لم يكن شأنكم مجرد البشارة فماذا هو" ؟ [٤]

ويجيب الرسل على سؤال إبراهيم عليه السلام مبينين الأمر الذي أرسلوا من أجله **(قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ)** وإنما اقتصروا على هذا القدر لعلم إبراهيم عليه السلام بأن الملائكة إذا أرسلوا إلى المجرمين كان ذلك لإهلاكهم واستئصالهم ، وأيضاً فقولهم " إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين "

---

١) تفسير أبي السعود ٥ / ٨٢ .

٢) نظم الدرر ١١ / ٦٧ .

٣) التحرير والتنوير ٢٧ / ٥ .

٤) تفسير أبي السعود ٥ / ٨٢ .

يدل على أن المراد بذلك الإرسال إهلاك القوم[١] ونظم الآيات يشتمل على استثنائين دار حولهما كلام المفسرين :-

الأول : إلا آل لوط " وهذا استثناء يجوز أن يكون منقطعاً على أنه استثناء من قوم ،لأن القوم موصوفون بالإجرام، فاختلف لذلك الجنسان، وعلى هذا فآل لوط مخرجون من حكم الإرسال ،ويكون الملائكة أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلاً، ومعنى إرسالهم علي هذا كإرسال الحجر أو السهم إلى المرمي، فهو في معنى التعذيب كأنه قيل: إنا أهلكنا قوماً مجرمين ،ولكن آل لوط أنجيناهم، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً على أنه استثناء من الضمير في مجرمين كأنه قيل : إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم ، وعلى هذا فالقوم والإرسال شاملان للمجرمين وغيرهم، ويكون الملائكة أرسلوا إليهم جميعاً ليهلكوا الأولين ،وينجوا الآخرين ، فلا يكون الإرسال بمعنى الإهلاك والتعذيب كما في الوجه الأول، وعلى هذا يكون قوله " إنا لمنجوهم " كلاماً مستأنفاً كأن إبراهيم عليه السلام قال لهم : فما حال آل لوط ؟ فقالوا إنا لمنجوهم أجمعين[٢].

وأما الاستثناء الثاني قوله " **إلا امرأته** " فيرى بعض المفسرين أنه استثناء من الضمير المجرور في قوله " لمنجوهم " وليس استثناء من الاستثناء السابق؛ لأن الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم كقول المطلق : أنت طالق ثلاثا إلا اثنتين إلا واحدة ، وفي قول المقر : لفلان علي عشر دارهم إلا ثلاثة إلا درهما، فأما في الآية فقد اختلف الحكمان، لأن آل لوط متعلق بأرسلنا أو بمجرمين، وإلا امرأته متعلق بمنجوهم، ومن ثم فليس هنا استثناء من استثناء [٣] بينما يرى آخرون أنه استثناء من الاستثناء ويصحح

---

١) مفاتيح الغيب ٧ / ١٥٢ .

٢) ينظر الكشاف ٢ / ٣٩٣ ، البحر المحيط ٥ / ٤٦٠ ، روح المعاني (١٤ / ٩٣ ، ٩٤) .

٣) الكشاف ٢ /٣٩٣، ٣٩٤ .

هذا أنه لما كان الضمير في " لمنجوهم "عائد على آل لوط " وقد استثنى منه المرأة، صار كأنه مستثنى من " آل لوط؛ لأن المضمر هو الظاهر في المعنى[١] والمراد بقوله " قدرنا " قضينا ،وقيل : كتبنا، وقيل: دبرنا والكل متقارب[٢] والغابرين: جمع غابر وهو الماكث بعد مضي ما هو معه ومنه الغبرة وهي البقية في الضرع من اللبن، والغبار ما يبقي من التراب المثار[٣] وببيان المصير المحتوم لقوم لوط وامرأته، وإيضاح نهايتهم المؤلمة يختم حوار الملائكة مع الخليل عليه السلام .

١) البحر المحيط ٥ / ٤٦٠ .

٢) مفاتيح الغيب ٧ / ١٥٣ .

٣) المفردات ص:٣٥٧ .

المطلب الثالث" حديث ضيف إبراهيم "

قال تعالى **(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَالْحَكِيمُ الْعَلِيمُ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ)**(الذاريات:٢٤- ٣٤).

بين يدي الآيات : هذه الحلقة الثالثة من الحلقات التي تعرض قصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة الذين جاءوه بالبشرى، وأخبروه بهلاك قوم لوط، وسورة الذاريات التي منها هذه الآيات مقصدها الأول الدلالة على صدق قضية الألوهية، وصدق ما وعد به الله تعالى، وأخبر به في كتابه من مشاهد يوم القيامة وما فيه من أحوال وأهوال . ومن ثم بدأت السورة بالاقسام بآيات الله الكونية على صدق ذلك ووقوعه، ثم عرضت للمكذبين الخراصين الذين هم في غمرتهم ساهون، ينكرون يوم الدين حتى إذا فاجأهم ذاقوا فيه العذاب الأليم، وعرضت في أثرهم للمتقين وثوابهم العظيم ، وأعمالهم التي نالوا بها هذا الثواب، ثم أشارت إلى آيات الله تعالى في الأرض وفي الأنفس وفي السماء مبينة أنها حجة لمن ينظر فيها على صدق ما أخبر به الله عز وجل ،وانتقلت السورة بعد ذلك إلي ذكر قصص بعض الأنبياء على سبيل الإيجاز مؤكدة على ما فيها من هلاك المكذبين ،لتكون عبرة للذين يكذبون بيوم الدين .

وبدئ بذكر قصة إبراهيم عليه السلام لصلته الوثيقة بالعرب، حيث يعتبرونه أباهم الأعلى، وقد جرى الحديث عن مشركيهم في صدر السورة وخوطبوا بجرائمهم.

وفي ذكر قصته مزيد تعريض بهم ؛لأنهم لم يتبعوا أباهم ولم يسيروا على نهجه في توحيد الله تعالى وعبادته، والفائدة في حكاية الضيافة ليكون

ذلك إشارة إلي الفرج في حق الأنبياء، والبلاء على الجهلة إذا جاءهم من حيث لا يحتسب، كما أن قصة إبراهيم عليه السلام أطول القصص المعروضة في السورة، وتشتمل على خبر عجيب وحوار غريب لم يحدث لنبي من الأنبياء المذكورين فيها ،فهي أدل علي قدرة الله تعالي التي تهتم السورة بإبرازها وذكر مظاهرها .

البداية:تبدأ هذه الحلقة بداية مثيرة للانتباه ،مشوقة للنفس باعثة لها علي ترقب ما يأتي بعدها " هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين " والخطاب هنا للنبي – صلى الله عليه وسلم – تسلية له علي ما لقيه من تكذيب قومه، ولبيان أن غيره من الأنبياء عرض لهم مثل ما يعرض له. وفي لفظ " أتاك " إشارة إلى أنه ليس من علم الرسول – صلى الله عليه وسلم – وإنما عرفه عن طريق الوحي (١)

والحديث : الخبر ،مأخوذ من حدث الدال على كون الشيء لم يكن بناء على أن الحديث كلام يحدث منه الشيء بعد الشيء(٢) والمراد بالحديث هنا : الخبر العظيم الذي اشتهر بين الناس وتناقلوه جيلاً بعد جيل سواء كان قليلاً أم كثيراً(٣) وفي هذا إشارة إلى أنه حوار دار وحدث شيئاً فشيئاً، وإضافة الحديث إلى ضيف إبراهيم؛ لأنهم البادئون به والسبب في جريانه . وقد مر الكلام عن لفظ " ضيف " في الآيات السابقة فلا داعي لتكراره، وأما سر وصفهم بالمكرمين هنا فمختلف فيه على أقوال:

أحدها : لأنهم كانوا ملائكة كراما عند الله تعالي كما في قوله جل شأنه " **بل عِبَادٌ مُكَرَّمُونَ**" **(الأنبياء:٢٦)الثاني** : لأن إبراهيم عليه السلام أكرمهم بتعجيل قراهم، وخدمته إياهم بنفسه **الثالث** : لأنهم كانوا ضيف إبراهيم، وكان

---

١) مفاتيح الغيب (١٠ / ١٧٢) .

٢) معجم مقاييس اللغة مادة حدث

٣) يانع الثمرات في تفسير سورة الذاريات د / إبراهيم الديب ص ١٢٢، دار الوفاء – المنصورة ط :ثانية

إبـراهيم أكـرم الخليقـة، وضـيف الكـرام مكرمـون **الرابــع** : لأنهـم جـاءوا غيـر مدعوين [١].

وهذه الأقوال لا تعارض بينها ولا تناقض ،فكلها محتملة، إلا أني أميل إلى الأول والثاني لدلالة القرآن الكريم على الأول، ودلالة الأثر الصحيح علي الثاني وهو ما روي عن مجاهد أنه قال: قوله " ضيف إبراهيم المكرمين " قال : أكرمهم إبراهيم، وأمر أهله لهم بعجل حينئذ "[٢] .

تحيـة وحـوار:وبعد البداية المشوقة للحديث يعرض الحوار الذي بدأه الملائكة مع إبراهيم عليه السلام بالتحية مبدوءاً ببيان وقته "إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً" ورد إبراهيم عليهم بأحسن من تحيتهم " قال سلام "

وقد سبق الحديث عن ذلك مفصلا في حلقتي هود والحجر فتأمله إلا أن في هذه الجملة " فقالوا سلاما " إشارة إلى وجوب التحية عقب الدخول؛ لأن الفاء تفيد الترتيب والتعقيب، فالملائكة كان سلامهم عقب الدخول بيد أننا نضيف هنا في هذه الآية " إذ دخلوا عليه " أن العامل في الظرف مختلف فيه، فقيل: إنه حديث وقيل : إنه منصوب بلفظ المكرمين إن أريد إكرام إبراهيم عليه السلام، لأن إكرام الله لا يتقيد، وقيل: منصوب بما في " ضيف من معني الفعل لأنه في الأصل مصدر وقيل : منصوب بإضمار اذكر، وقيل: منصوب بـ " أتاك " والتقدير: ما أتاك حديثهم وقت دخولهم فاسمع الآن ذلك ؛لأن هل ليس للاستفهام حقيقة في هذا الموضع، بل للإعلام [٣] وهذا القول الأخير رجحه الإمام الرازي حيث قال : وهذا أولى لأنه فعل مصرح به[٤] بيد أن بعض المفسرين قد اعترض عليه بحجة اختلاف الزمانين : زمن إتيان

---

١) ينظر معالم التنزيل ٤ / ٢٣٢ ، لباب التأويل ٤ / ١٩٤ ، البحر المحيط ٨ / ١٣٧

٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٦ / ٢٦٨ .

٣) ينظر الكشاف ٤ / ٢٩، مفاتيح الغيب ١٠ / ١٧٤، الفتوحات الإلهية ٤ / ٢٠٤ ، حاشية الشهاب ٨ / ٩٧

٤) مفاتيح الغيب ١٠ / ١٧٤ .

الحديث وزمن دخولهم عليه، فقد جاء في تفسير الجمل ما نصه :" ولا يجوز نصبه بـ " أتاك " لاختلاف الزمانين "[١] .

ورجح صاحب التحرير والتنوير القول الأول حيث قال : وظرف"إذ دخلوا عليه " يتعلق بـ " حديث " لما فيه من معنى الفعل أي خبرهم حين دخلوا عليه "[٢] .

والذي أراه مناسبا للمقام – والله أعلم – هو القول الثاني، لأنه أوضح للكرم، وأظهر في الاعتقاد بضمان الرزق، ويكون الظرف حينئذ لبيان سرعة كرم الضيف وقت دخوله، وهذا هو شأن الكريم لا يضع في اعتباره المعرفة وعدمها عند نزول الضيف عنده ، بل يفعل ما تقتضيه المروءة من حسن اللقاء وطلاقة الوجه ولين الكلام ،ومما يقوي ذلك قوله تعالى بعد " فراغ إلى أهله": بفاء التعقيب التي تدل علي سرعة الروغان إلى ما يريد حتى لا يشعر ضيفه بذلك .

ويردف رده السلام في هذه الآيات بقوله " قوم منكرون " أي جماعة غير معروفين لنا معرفة يسكن إليها القلب. والإنكار ضد العرفان، يقال : أنكرت كذا ونكرت، وأصله : أن يرد على القلب ما لا يتصوره، وذلك ضرب من الجهل، وأنكرتك واستنكرتك : إذا وجدته على غير ما عهدته[٣] وعلى هذا يكون المعنى : أنتم قوم لا أعرفكم، وهذا القول يجوز أن يكون خطابا للملائكة علي سبيل السؤال عنهم ،فكأنه قال لهم : أنتم قوم منكرون، فعرفوني من أنتم، وقيل: إن التقدير : هؤلاء قوم منكرون، ويكون إبراهيم عليه السلام قد قال ذلك في نفسه، أو لمن معه من خدمه وأهله من غير أن يشعرهم بذلك [٤].

---

١) الفتوحات الإلهية ٤ / ٢٠٤ .

٢) التحرير والتنوير ٢٦ / ٣٥٨ .

٣) ينظر المفردات ص: ٥٢٦ ، اللسان ٦ / ٤٥٣٩ ، المصباح المنير ص ٦٢٥ .

٤) ينظر البحر المحيط ٨ / ١٣٧ ، روح المعاني ٢٧ / ١١ .

والذي أميل إليه أن هذا القول – **قوم منكرون** – قاله سيدنا إبراهيم عليه السلام في نفسه، أو لمن معه من خدمه وأهله، وهذا هو الأنسب بأدب سيدنا إبراهيم عليه السلام، لأنه ما كان لنبي الله وقد وصفه الله تعالى بالحلم في قوله " **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أواهٌ مُنِيبٌ** " أن يلقي هذا القول في وجوه ضيفه، ثم يستقبلهم بعد ذلك بهذا الإكرام الذي حكاه عنه القرآن الكريم،ولو كان المعنى: أنتم قوم لا أعرفكم لكان فيه إحراج للضيف وسوء استقبال له، وهذا لا يليق بأي مضيف ناهيك عن سيدنا إبراهيم الذي قيل عنه : إنه كان يكني أبا الضيفان لكرمه وكثرة ضيوفه، فقد ذكر الماوردي في تفسيره عن عطاء أنه قال : كان إبراهيم إذا أراد أن يتغذى أو يتعشى خرج الميل أو الميلين أو الثلاثة فيطلب من يأكل معه[١] وهذا ما ذهب إليه أكثر المفسرين . قال صاحب البحر : والذي يناسب حال إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه لا يخاطبهم بذلك، إذ فيه من عدم الأنس ما لا يخفى، بل يظهر أنه يكون التقدير : هؤلاء قوم منكرون، وقال ذلك مع نفسه، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه، بحيث لا يسمع بذلك الأضياف[٢]

ولعله عليه السلام إنما قاله في نفسه من غير أن يشعرهم بذلك لا أنه خاطبهم به جهرا، أو سألهم أن يعرفوه أنفسهم كما قيل، وإلا لكشفوا أحوالهم عند ذلك، ولم يتصد عليه السلام لمقدمات الضيافة [٣] وقال ابن عاشور: وقوله" قوم منكرون " من كلام إبراهيم والظاهر أنه قال خفتًا، إذ ليس من الإكرام أن يجاهر الزائر بذلك فالتقدير: هم قوم منكرون"[٤]

ويرجع السبب في إنكار سيدنا إبراهيم عليه السلام للملائكة إلى أمور منها :

---

١) تفسير الماوردي ٥ / ٣٦٩ .

٢) البحر المحيط ٨ / ١٣٧ .

٣) تفسير أبي السعود ٨ / ١٤٠ .

٤) التحرير والتنوير (٢٦ / ٣٥٨) .

أولاً : أنهم سلموا عليه، فأنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض فالسلام لم يكن معروفاً في قومه **ثانياً** : أنهم دخلوا عليه من غير استئذان .

ثالثاً : أنهم عليهم السلام ليسوا ممن عهدهم من البشر، ولأن أوضاعهم وأشكالهم خلاف ما عليه الناس[١] .

قوله عز وجل " **فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين** " والروغ : الميل على سبيل الاحتيال، ومنه راغ الثعلب يروغ روغانا، وطريق رائغ إذا لم يكن مستقيماً كأنه يراوغ، وراغ فلان إلى فلان : مال نحوه لأمر يريده منه بالاحتيال وحقيقته: طلب بضرب من الروغان[٢] وفي اللسان : راغ فلان إلى فلان : أي مال إليه سرا، وقيل : أقبل، وقيل معناه : رجع إلي أهله في حال إخفاء منه لرجوعه، ولا يقال للذي رجع راغ إلا أن يكون مخفيا لرجوعه "[٣] وعلى هذا يكون المعنى : فمال إبراهيم عليه السلام إلى أهله في خفية من ضيوفه، فجاءهم بالطعام فقدمه بين أيديهم، وطلب منهم في تلطف ومودة أن يأكلوا منه، وهذا شأن الكريم يعرف ما يحتاج إليه الضيف دون أن يسأله فيحرجه.

والفاء في قوله " **فراغ** " تدل علي سرعة الروغان،مبالغة في إكرام سيدنا إبراهيم عليه السلام، فهي فاء التعقيب. قال ابن عطية في تفسيره " راغ " معناه : مضى إثر حديثه مخفيا زواله، مستعجلاً ، كأنه لم يرد أن يفارقهم فمضي إلى ناحية من داره مستعجلاً ورجع من حينه، وهذا تشبيه بالروغان المعروف[٤]

وقال أبو السعود : " فراغ إلى أهله " أي ذهب إليهم على خفية من ضيفه، فإن من أدب المضيف أن يبادره بالقرى، ويبادر به حذراً من أن يكفه ويعذره، أو يصير منتظرا "[٥] والمقصود بأهله هنا خدمه والرعاة الذين كان

---

١) ينظر معالم التنزيل ٤ / ٢٣٢ ، الكشاف ٤ / ٢٩ ، لباب التأويل ٤ / ١٩٥ ، السراج المنير ٤ / ١٠٠.

٢) المفردات ص: ٢١٣ .

٣) اللسان ٣ / ١٧٧٩ .

٤) المحرر الوجيز ٥ / ١٧٧ .

٥) (٣) تفسير أبي السعود ٨ / ١٤٠ وانظر تفسير البيضاوي / ٤٢٩ .

عندهم البقر، وكان عامة مال إبراهيم عليه السلام البقر، وقيل المقصود بأهله : امرأته سارة [١].

وقوله "**سمين**" السمين : نقيض الهزال ،يقال : سمن يسمن سمنا فهو سمين وأسمن الرجل : ملك سمينا أو اشتراه أو وهبه، وأسمن الحيوان : صيره سمينا وأسمن القوم : سمنت مواشيهم ونعمهم، واستسمنت اللحم أي وجدته سمينا[٢] قال صاحب البحر : وكونه عطف " فجاء " على " فراغ " يدل علي سرعة مجيئه بالقرى، وأنه كان معدا عنده لمن يرد عليه[٣] أو أنه عليه السلام ذهب إلى أهله فطلب أسمن عجل فذبحه فشواه فجاء به، وعلى هذا تكون الفاء هنا الفصيحة، كما جاء في تفسير الألو سي : والفاء فصيحة أفصحت عن جمل قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها، وإيذاناً بكمال سرعة المجيء بالطعام، أي فذبح عجلاً فحنذه فجاء به "[٤] وسر الوصف بالسمين : للدلالة على كرم سيدنا إبراهيم عليه السلام لضيفه حيث اختار لهم أجود الطعام وأحسنه وجاء به تاماً زائداً علي حاجة الضيف ، وهذا من أدب الضيافة .قوله عز وجل " **فقربه إليهم قال ألا تأكلون** "

قوله " فقربه إليهم " أي وضع العجل أمامهم، وجعله بين أيديهم، ولم يكلفهم السعي إليه، ثم دعاهم إلى الأكل منه بلطف وملاينة، فلم يمدوا أيديهم إليه ولم يقبلوا علي الأكل منه، وفي وضع الطعام أمام الضيف أدب من آداب الضيافة وإكرام الضيف، بخلاف من يهيئ الطعام في مكان ثم يقيم ضيفه من مكانه فيورده عليه، يقول ابن عاشور: ومعنى "**قربه**" : وضعه قريباً منهم، أي لم ينقلهم من مجلسهم إلى موضع آخر،بل جعل الطعام بين أيديهم ، وهذا من تمام الإكرام للضيف، بخلاف ما يطعمه والسائل فإنه يدعى إلى مكان

---

١) ينظر الوسيط للواحدي ٤ / ١٧٨ ، السراج المنير ٤ / ١٠٠ ، فتح البيان ٩ / ١٢٤ .

٢) ينظر اللسان ٣ / ٢١٠٤ ، المعجم الوسيط ١ / ٤٩٦ .

٣) البحر المحيط ٨ / ١٣٧ .

٤) روح المعاني ٢٧ / ١٢ .

الطعام[١] واختلف العلماء في همزة"ألا"على أقوال: **أحدها** : أنها للإنكار بمعنى : أنكر عليهم عدم تعرضهم للأكل **الثاني** : أنها للتحضيض أي حثهم علي الأكل وحضهم عليه .**الثالث** : أنها للعرض، فإبراهيم عليه السلام عرض عليهم الطعام بلين ورقة وتلطف[٢]

وقد فصل الإمام البيضاوي هذه الأقوال المذكورة في همزة" **ألا** " فقال: والهمزة فيه للعرض، والحث علي الأكل على طريقة الأدب إن قاله أول ما وضعه، وللإنكار إن قاله حينما رأى إعراضهم "[٣] وكل هذه الأقوال جائز مقبول في اللغة، وإن كان الأنسب والأليق بالمقام هو الأول- كون الهمزة للإنكار – لأنه عليه السلام – لما قرب إليهم الطعام ولم يأكلوا منه، أنكر عليهم ذلك وخافهم، قال أبو السعود : قال ألا تأكلون " إنكار لعدم تعرضهم للأكل "[٤] والمعنى: فقربه إليهم ليأكلوا منه فلم يأكلوا، قال ألا تأكلون، على النكير، أي أمركم في ترك الأكل مما أنكره [٥] ويدل على ذلك قوله تعالى "**فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً**" وعلى كل فإن الآية بينت أن من آداب الضيافة ما يأتي أولاً : تقريب الطعام إلى الضيف. ثانياً : عرضه عليه بلين ولطف حيث قال" ألا تأكلون " ولم يقل كلوا أو تقدموا ونحو ذلك من الكلام الذي ليس فيه تأنيساً للأكل وأما عن سبب امتناعهم من الأكل؛ فلأنهم ملائكة، والملائكة لا يأكلون ولا يشربون، وإنما أتوه علي صورة الضيف ليكونوا علي صفة يحبها، فكان سيدنا إبراهيم عليه السلام مشغوفاً بالضيافة. قال ابن كثير : وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة، فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولا فقال : نأتيكم بطعام ، بل جاء به بسرعة

---

١) التحرير والتنوير ٢٦ / ٣٥٩ .

٢) ينظر لباب التأويل ٤ / ١٩٥ ، البحر المحيط ٨ / ١٣٧ السراج المنير ٤ / ١٠٠ ، فتح البيان ٩ / ١٢٥

٣) تفسير البيضاوي ٢ / ٤٢٩ .

٤) تفسير أبي السعود ٨ / ١٤٠ .

٥) ينظر: معاني القرآن للزجاج ٥ / ٥٥ ، زاد المسير ٧ / ٢٠٩ .

وخفاء، وأتي بأفضل ما وجد من ماله وهو عجل سمين مشوي فقربه إليهم، لم يضعه وقال : اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم ، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال " ألا تأكلون "علي سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم : إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل " [١] .

ولما دعاهم إلى الأكل فلم يمدوا أيديهم إليه أضمر في نفسه خوفا منهم فقال تعالى "فَ**أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ**" والفاء في قوله " فأوجس " فاء الفصيحة لإفصاحها عن جملة مقدرة يقتضيها ربط المعنى، وهي عاطفة على كلام مقدر دل عليه المقام أي : قرب إليهم إبراهيم عليه السلام الطعام فامتنعوا عن الأكل فأوجس منهم خيفة، أي أضمر في نفسه خوفاً شديداً وفزعاً [٢] والمعنى : فأوجس إبراهيم عليه السلام بالخوف منهم، وداخله الريب في أمرهم، وتوقع منهم شرا، لأن الضيف إذا لم يأكل من طعام مضيفه كان ذلك سبباً للظن حول مجيئه ، والتماس الأسباب في امتناعه عن الطعام، فإن من أدب الضيافة أن يطعم الضيف من الطعام المقدم له ليؤنس صاحبه. ويرجع سبب خوف إبراهيم عليه السلام إلى امتناعهم عن الطعام، لأن أكل الضيف طعام ضيفه مأمنة ومسرة، وامتناعه عنه وحشة موجبة لظن الشر، وقيل: إن السبب ظن إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة جاءوا للعذاب[٣] والأول أظهر؛لأن سيدنا إبراهيم لم يعرف أنهم ملائكة، ولو عرف أنهم من الملائكة لما تسارع إلى إحضار الطعام لهم،قال الألو سي في قوله " فأوجس منهم خيفة ": فأضمر في نفسه منهم خوفا لما رأى عليه السلام إعراضهم عن طعامه ، وظن أن ذلك لشر يريدونه، فإن أكل الضيف أمنة

---

١) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٣٧ .

٢) التحرير والتنوير ٢٦ / ٣٦٠ .

٣) ينظر تفسير أبي السعود ٨ / ١٤٠ ، تفسير البيضاوي ٢ / ٤٢٩ ، فتح القدير ٥ / ٨٨ .

ودليل علي انبساط نفسه، وللطعام حرمة، والامتناع منه وحشة موجبة لظن شر" [١]

" **قالوا لا تخف**" أي قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام : لا تخف منا فإنا رسل ربك، وفي هذه الحالة طمأنة له بعد أن علموا خوفه.فإن قيل: كيف علموا خوفه مع أن لفظ " أوجس" يدل على إضمار الخوف ؟ فالجواب على ذلك: إنهم علموا خوفه بأحد هذه الأمور :

أولاً : إما باطلاع الله تعالي إياهم عليه. **ثانيا** : وإما باطلاع ملائكته الكرام الكاتبين عليه وإخبارهم به. **ثالثاً** : وإما لظهور أمارات الخوف على وجهه الشريف.[٢] **قلت** : وسواء عرف إبراهيم أنهم ملائكة أم لم يعرف فإنما يدل هذا الخوف دلالة واضحة علي بصيرة إبراهيم ورجاحة عقله لأنه أوجس منهم خيفة أضمرها في نفسه دون أن يظهرها لهم وهذا من أدب النبوة ثم قال تعالى " **وبشروه بغلام عليم** " لقد سبق تعريف البشارة عند تفسير آيات هود . والمراد بالغلام العليم : إسحاق بن إبراهيم – عليهما السلام – وهو الصحيح إن شاء الله تعالى والدليل علي ذلك أن الله تعالي صرح باسمه في سورة هود ، والقصة واحدة في السورتين فقال تعالى " فبشرناها بإسحاق " ومما يقوي ذلك ما جاء في سورة الصافات من قوله تعالى"**وَبَشَّرناهُ بإسحاق نَبيًّا مِنَ الصَّالحِينَ** "(الصافات:١١٢) وكان ذلك بعد ذكر إسماعيل عليه السلام، ووصفه بالحلم . وقال مجاهد – وحده – المراد بالغلام العليم هو إسماعيل عليه السلام ، وهذا القول ضعيف؛لأنه لا يتفق مع ظاهر القرآن الكريم . قال ابن عطية في تفسيره:" وجمهور الناس على أن الغلام هنا : إسحاق بن سارة الذي ذكرت البشارة به في غير موضع وقال مجاهد : هذا الغلام هو إسماعيل والأول أرجح "[٣] وقال القرطبي :" والجمهور أن المبشر به هو إسحاق، وقال

---

١) روح المعاني ٢٧ / ١٩ .

٢) ينظر البحر المحيط ٨ / ١٣٨ ، روح المعاني (٢٧ / ١٩) .

٣) المحرر الوجيز ٥ / ١٧٨ .

مجاهد : هو إسماعيل وليس بشيء، فإن الله تعالى يقول " وبشرناه بإسحاق " وهذا نص"[١].

ومما سبق يتضح أن ما جاء عن مجاهد من أن المراد بالغلام العليم هو إسماعيل عليه السلام ضعيف لأنه لا يتفق مع ما جاء في القرآن الكريم وما ذهب إليه جمهور المفسرين ،وما أجمع عليه السلف والخلف .والمراد بقوله " عليم " أي يبلغ ويعلم، وعن الحسن: عليم : نبي[٢] وقال ابن عطية : أي عالم في حال تكليفه وتحصيله أي سيكون عليماً[٣] .وسر الوصف بالعلم خاصة من بين سائر الصفات؛ لأنه أكملها قال الرازي : ثم إنهم تركوا سائر الأوصاف من الحسن والجمال والقوة والسلامة واختاروا العلم، إشارة إلى أن العلم رأس الأوصاف ورئيس النعوت "[٤] فوصفه بالعلم لأنها الصفة التي يختص بها الإنسان الكامل لا الصورة الجميلة والقوة ونحوهما، وهذا عند غير الأكثرين من أهل هذا الزمان، فإن العلم عندهم لاسيما العلم الشرعي رذيلة لا تعادلها رذيلة، والجهل فضيلة لا توازنها فضيلة [٥]

وعلى هذا يكون المعنى : لما رأت الملائكة أمارات الخوف على وجه سيدنا إبراهيم عليه السلام طمأنوه بقولهم " لا تخف "ولا تفزع ، وبشروه بولد يولد له من زوجه سارة، وكانت هذه البشارة زيادة في تطمينه، وبمثابة اعتذار منهم عن عدم الأكل، وتعريفه بأنهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون، فاطمأن لهم وهدأت نفسه .

وقد أخذ بعض المفسرين من ذلك أدباً من آداب الضيافة وهو: الاعتذار الحسن إن امتنع الضيف عن الأكل من طعام مضيفه، فينبغي أن لا يقول

---

١) تفسير القرطبي ١٧ / ٤٩ .

٢) ينظر الكشاف ٤ / ٣٠ ، لباب التأويل ٤ / ١٩٥ .

٣) المحرر الوجيز ٥ / ١٧٨ .

٤) مفاتيح الغيب (١٠ / ١٧٧) .

٥) روح المعاني ٢٧ / ١٩ .

الضيف : هذا طعام غليظ لا يصلح لي، بل الأفضل والأحسن أن يأتي بعبارة لطيفة فيقول مثلاً : لي مانع من أكل الطعام وفي بيتي لا آكل أيضاً شيئاً، ويدل علي ذلك قوله تعالى " وبشروه بغلام عليم " حيث فهموه أنهم ليسوا ممن يأكلون، ولم يقولوا لا يصلح لنا الطعام والشراب . ثم أدب آخر من آداب البشارة، وهو :ألا يخبر الإنسان من يبشره بما يسره دفعة واحدة لأن الخبر المفاجئ ربما يورثه مرضاً ، ويكون سببا في إيذائه، فالأفضل أن يخبره بالتدريج ،ويدل علي ذلك أن الملائكة عليهم السلام جلسوا وقرب إليهم الطعام، واستأنس بهم سيدنا إبراهيم عليه السلام،ثم بشروه بالغلام ، ولم يقتنعوا بكونه ذكراً حتى وصفوه بأحسن الأوصاف، فإن الابن دون البنت إذا كانت البنت كاملة الخلقة حسنة الخلق، والابن بالضد [1].

الحوار مع امرأته : وتنتقل الآيات إلى وصف حال امرأته ، وكانت علي مقربة منهم ، فلما سمعت ذلك عجبت أشد العجب فقال تعالى " فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم "فقوله " **فأقبلت**" من الإقبال الذي هو ضد الإدبار، واستقبل الشيء :حاذاه بوجهه، وتقابل القوم : استقبل بعضهم بعضا والإقبال : التوجه نحو القبل[2] وعلي هذا يكون معني الإقبال هنا: الاتجاه إلي الضيوف والقرب منهم، قال ابن عطية : يحتمل أن يكون قربت إليهم من ناحية من نواحي المنزل [3] وقيل: إن معنى الإقبال أيضاً هنا : الإقبال على الأهل والإعراض عن الملائكة حياء منها لما تكلموا مع زوجها بولادتها، فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الإقبال علي الأهل، ولم يقل بلفظ الإدبار عن الملائكة إجلالاً للملائكة ، وإكراما لها ولزوجها،وقيل : إن أقبلت بمعني أخذت أي شرعت في الكلام المذكور وصارت تتحدث به لأنها قد امتلأت

---

١) مفاتيح الغيب (١٠ / ١٧٧) بتصرف .

٢) ينظر المفردات ص٤٠٦ ، اللسان ٥ / ٣٥١٧ .

٣) المحرر الوجيز ٥ / ١٧٨ .

عجبا، فهو كقول القائل :أقبل يفعل كذا إذا أخذ وشرع فيه[١]. والذي أميل إليه من هذه الأقوال هو الأول – الذي يفسر الإقبال بمعنى الاتجاه إلي الضيوف والقرب منهم – ؛ وذلك لأنه المفهوم من ظاهر اللفظ ، ودل عليه المعنى اللغوي، وليس هناك داع يدعو إلى الانصراف عنه إلى غيره، ومما يدل على ذلك خطاب الملائكة لها بعد ذلك بما حكاه الله تعالي عنهم بقوله " **قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم**" فلو كان الإقبال بمعنى الإعراض عن الملائكة والاتجاه إلى الأهل فكيف تخاطبها الملائكة وقد أعرضت عنهم ، كما أن في إقبالها إلى بيتها وأهلها إعراض عن الملائكة بعد معرفتهم وقطع للحوار معهم علما بأن حوارها مع الملائكة لم ينقطع ، وكلام الملائكة معها لم ينته بمجرد البشارة كما ترشد إلى ذلك آيات سورة هود وبقية الآيات في هذه الحلقة.

والصَّرة– بالفتح – الصيحة، من صر العلم والباب يصر– بالكسر – صريراً : أي صوت[٢] والصرة الضجة والصيحة، والصرة : الجماعة المنضم بعضهم إلى بعض كأنهم صروا أي جمعوا في وعاء [٣] واختلف المفسرون في المراد بالصرة هنا علي أقوال: فقيل المراد بها : الصيحة. وقيل : الرنة. وقيل : شدة الصوت وقيل: الجماعة [٤] وهذه الأقوال كلها مما تحتمله الآية الكريمة ،والمعنى أنها كانت في زوايا البيت تنظر إليهم فأقبلت في صيحة أو ضجة أو في جماعة من الناس يستمعون كلام الملائكة، بيد أني أميل إلى الأول منها – والذي يفسر الصرة بالصيحة – ؛وذلك لأن سماع الخبر الغريب يجعل الإنسان السامع في دهشة وتعجب فيرفع صوته ويصيح صياح تعجب واستغراب؛ ولأنه يتفق مع ما جاء في اللغة وما ذهب إليه أكثر المفسرين، قال الرازي: وقوله تعالى " في صرة " أي صيحة، كما جرت عادة النساء حيث يسمعن شيئاً من

---

١) ينظر مفاتيح الغيب ١٠ / ١٧٧ ، الفتوحات الإلهية ٤ / ٢٠٥ .

٢) ينظر مختار الصحاح ص١٧٥ .

٣) ينظر اللسان ٤ / ٢٤٣٩ ، المفردات ص ٢٨٧ .

٤) ينظر البحر المحيط ٨ / ١٣٨ ، روح المعاني ٢٧ / ٢٠ ، الفتوحات الإلهية ٤ / ٢٠٥ .

أحوالهن، يصحن صيحة معتادة لهن عند الاستحياء أو التعجب "[١] والظاهر أن هذه الصرة كانت مصاحبة لقولها"يا ويلتى " كما في سورة هود، ويؤيد هذا عادة النساء المشاهدة إلى اليوم في الصراخ مع الندبة قوله " **فصكت وجهها** " الصك : الضرب الشديد بالشيء العريض، وقيل: الضرب عامة بأي شيء كان[٢] والصك: اللطم، وصك الوجه عند التعجب عادة النساء [٣] واختلف المفسرون في المراد بصكها وجهها على أقوال:

الأول : أنها لطمت وجهها عجبا. **الثاني** : أنها ضربت جبهتها عجبا قال الزمخشري : " فصكت " فلطمت ببسط يدها، وقيل : فضربت بأطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب "[٤] **الثالث** : أنها وجدت حرارة دم الحيض فلطمت وجهها من الحياء[٥] قال الخطيب الشربيني : اختلف في صفة الصك، فقيل: هو الضرب باليد مبسوطة، وقيل: هو ضرب الوجه بأطراف الأصابع فعل المتعجب وهي عادة النساء إذا أنكرت شيئاً، وقيل : جمعت أصابعها وضربت جبهتها عجبا " [٦]

وهذه الأقوال كلها محتملة، فالآية تشملها بعمومها، وكلها أقوال متقاربة في المعنى، فكما أن الصك في اللغة الضرب، فكذلك اللطم جاء بمعنى الضرب أيضاً، فقد جاء في اللسان : اللطم : ضربك الخد وصفحة الجسد ببسط اليد، واللطم : الضرب علي الوجه بباطن الراحة [٧] وإنما صاحت وصكت وجهها من جراء الدهشة الشديدة التي امتلكتها لما بشرت بالولد وهي غير مؤهلة لذلك بحكم العادة وقد أفصحت عن ذلك " وقالت عجوز عقيم

---

١) مفاتيح الغيب ١٠ / ١٧٧ .

٢) ينظر اللسان ٤ / ٢٤٧٤ ، المعجم الوسيط ١ / ٥٣٨ .

٣) التحرير والتنوير ٢٦ / ٣٦٠ .

٤) الكشاف (٤ / ٣٠) .

٥) ينظر البحر المحيط ٨ / ١٣٨ ،تفسير أبي السعود ٨ / ١٤٠

٦) السرج المنير ٤ / ١٠١

٧) اللسان ٥ / ٤٠٣٧ .

،والعجوز من النساء : الشيخة الهرمة والتي طعنت في السن، والعقيم المرأة التي لا تلد والعقيم من النساء : التي لا تقبل ماء الفحل، قال صاحب المصباح : العقيم : الذي لا يولد له يطلق علي الذكر والأنثى[١] وهذه الجملة " عجوز عقيم " كالعلة لاستبعاد أمر الولادة منها لكبرها وتجاوزها سن اليأس ولعقمها وعدم ولادتها .

ولما كان ما فعلته وما قالته مثيراً للتساؤل عن رد فعل الملائكة فقد بينت الآية التالية ذلك فقال سبحانه " **قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ** "هذه الآية من كلام الملائكة لسارة إزالة لتعجبها واستغرابها أمر الولادة ، أي قالت الملائكة : إن الذي أخبرناك به من أنك ستلدين غلاما في هذه السن ليس من عند أنفسنا ، إنما هو من عند الله تعالي فلا تتعجبي منه ، فالله تعالي هو الذي قال كذلك وقضي به أزلاً ، فلا تشكي فيه فقوله تعالي لا مرد له ولا معقب لحكمه – " والكاف في قوله " كذلك " بمعني مثل أي مثل ذلك القول الكريم الذي أخبرنا به " قال ربك " وإنما نحن معبرون نخبرك به عنه عز وجل، لا أنا نقوله من تلقاء أنفسنا "[٢] .

فالمراد من هذا التشبيه أن قول الله تعالي وقول الملائكة يجتمعان في الصدق والحق ثم عللوا كلامهم بتذييل مؤكد فقال تعالى" **إنه هو الحكيم العليم** " هذه الجملة تعليل لما قبلها، وإشارة إلى إزالة استبعادها الولادة لأن فعل الله تعالى مبني على الحكمة والعلم، فإذا كان الحكيم العليم هو الذي قال ذلك فلا داعي للعجب، يقول ابن عاشور: وجملة " **إنه هو الحكيم العليم** "تعليل لجملة " **كذلك قال ربك** " المقتضية أن الملائكة ما أخبروا إبراهيم إلا تبليغاً من الله، وأن الله صادق وعده، وأنه لا موقع لتعجب امرأة إبراهيم لأن الله حكيم يدبر تكوين ما يريده، وعليم لا يخفى عليه حالها من العجز والعقم "[٣]

---

١) المصباح المنير ص ٤٢٣ .

٢) روح المعاني ٢٧ / ٢٠ .

٣) التحرير والتنوير ٢٦ / ٣٦١ .

هـلاك قـوم لـوط:ولا شك أن إبراهيم عليه السلام كان يعلم أن نزول الملائكة واجتماعهم علي هذه الصفة لا يكون إلا لأمر جليل، ومن ثم وجه إليهم سؤالا وهو قوله تعالى : **قَالَ فَمَا خَطْبكم أيُّها المُرسلونَ** "والقائل هنا هو إبراهيم عليه السلام، والخطب : الأمر الذي يقع فيه المخاطبة والشأن والحال ومنه قولهم : جل الخطب أي عظم الأمر والشأن [١] وفي نداء سيدنا إبراهيم عليه السلام لضيفه باسم المرسلين لا باسم الملائكة إشارة إلى أنهم ليسوا مجرد ملائكة عابرين، بل إنهم محملون برسالة من رب العالمين، فهو يسألهم عن محتوى ما أرسلوا به إليه،

ثم أجابت الملائكة عن سؤاله . **قَالُوا إنَّا أَرْسَلْنَا إلَي قَوْمٍ مُجْرمينَ** " وفيه إشارة إلي أنهم مرسلون من لدن القاهر القادر لا من عند أنفسهم ، والمراد بالقوم المجرمين هنا قوم لوط عليه السلام كما وضحته سورة هود وصرحت به في قوله " قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط " وسمي قوم لوط بالمجرمين؛ لأنهم أجرموا بالكفر وارتكاب الفواحش، فقوم لوط كانوا مجرمين عادين طاغين أذنبوا ذنبا عظيما – إلى جانب كفرهم – ما سبقهم به أحد من العالمين وهو أنهم كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء ،وهو عمل منكر قبيح تأباه الفطرة السليمة ، ويستقذره العقل السوي[٢] ثم قال تعالى " لنرسل عليهم حجارة من طين " وفيه إشارة إلى أن إرسالهم الحجارة لم يقع بعد، وأنهم المباشرون لإرسالها المنفذون بأمر الله والمراد بقوله " حجارة من طين" السجيل وهو طين طبخ كما يطبخ الآجر[٣] حتى صار في صلابة الحجارة،قال الألو سي:" لنرسل عليهم "أي بعد قلب قراهم عاليها سافلها حسبما فصل في سائر

---

١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢ / ٤٥ .

٢) التفسير القرآني للقرآن ٧ / ٥٢٢ .

٣) الآجر: طبيخ الطين وهو الطوب الذي يبنى به ، فارسي معرب. اللسان ١ / ٣٢ ، مختار الصحاح ص ٢٧

السور" من طين" أي طين متحجر وهو السجيل، وفي تقييد كونها من طين رفع توهم كونها بردا، فإن بعض الناس يسمي البرد حجارة "[١]

أقول: لعل الوجه في ذلك هو بيان أنها ليست حجارة صخرية ولكنها طين مطبوخ أشد تأثيرا من الحجارة الملساء" فوصف الحجارة بأنها "**من طين**" إشارة إلي أن هذا الطين اللين الرخو يفعل بقدرة الله تعالى فعل الحجارة الصلدة فيهلك " ويدمر، وكأنه الصواعق المرسلة المنقضة من السماء"[٢]

قوله عز وجل " **مُسَوَّمة عِنْدَ رَبّكَ للمُسْرفينَ** "اختلف العلماء في معنى قوله " **مسومة** " على أقوال: **أحدها** : أنها معلمة **الثاني** : أنها مرسلة. **الثالث** : أنها معدة ومهيأة [٣] والذي أراه راجحا منها هو الأول؛ لأنه الأنسب بسياق الآية وتؤكده اللغة حيث جاء في اللسان : السومة والسيمة والسيماء : العلامة والسومة – بالضم– العلامة تجعل على الشاة [٤] وذهب إليه جمهور المفسرين كما هو الظاهر من عباراتهم، قال الخطيب : "مسومة" أي معلمة بعلامة العذاب المخصوص عليها اسم من يرمي بها[٥] وقال ابن عاشور: "والمسومة التي عليها السومة أي العلامة أي عليها علامات من ألوان تدل على أنها ليست من الحجارة المتعارف"[٦] والمراد بالإسراف هنا : مجاوزة الحد في الكفر والضلال،وسر تسميتهم بالمسرفين لإسرافهم وعدوانهم في عملهم حيث لم يقنعوا بما أبيح لهم [٧] فقد كان إسرافهم أنهم أتوا بما لم يسبقهم به أحد من العالمين، وهو إتيانهم الذكور وتجاوزهم الحد في هذه الجريمة .وقوله " **عند ربك** " فيه إشعار بفخامتها وهول تأثيرها، فإن الله تعالى قد أعدها لهم وخصها بهم ، وفي

---

١) روح المعاني ٢٧ / ٢١ .

٢) التفسير القرآني للقرآن ٧ / ٥٢٢ .

٣) ينظر الكشاف ٤ / ٣٠ ، إعراب القرآن للنحاس ٤ / ٢٤٥ ، تفسير أبي السعود ٨ / ١٤١ .

٤) اللسان ٣ / ٢١٥٨ .

٥) السراج المنير ٤ / ١٠٢ .

٦) التحرير والتنوير ٢٧ / ٦ .

٧) الكشاف ٤ / ٣٠ .

لفظ الرب المضاف إلى ضميره إشعار بعنايته به وحفظه له، فلن يمسه ولا الذين آمنوا معه شيء من هذا السوء، واللام في المسرفين للعهد، أي لهؤلاء المسرفين المعهودين الذين هم قوم لوط المعبر عنهم بالقوم المجرمين،

وفي التعبير باسم الفاعل إشارة إلى أنهم ثابتون في الإسراف موصوفون به وصفاً دائماً [١].وبتفصيل المهمة التي جاء من أجلها الملائكة، وبيانهم لنهاية قوم مردوا علي القذارة والنجاسة ينتهي حوار الملائكة مع إبراهيم عليه السلام ليبدأ بعده ذكر ما جرى لقوم لوط عليه السلام .

١) انظر تفسير أبي السعود (٨ / ١٤١) ، روح المعاني (٢٧ / ٢١) .

المطلب الرابع "جدال إبراهيم عن لوط عليهما السلام"

قال تعالى "**وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ**" (العنكبوت:٣١، ٣٢).

هذه الحلقة وردت في ثنايا قصة لوط عليه السلام مع قومه ،وبذلك تختلف في موقعها من النظم عن الحلقات الثلاث السابقة التي وردت مستقلة قبل قصة لوط ثم عقبت بذكرها، وهي أوجز الحلقات التي عرضت خبر إبراهيم عليه السلام مع الملائكة حيث اقتصرت على ما يخص لوطا وقومه.

وقصة لوط في هذه السورة مسبوقة أيضاً بحلقة من قصة إبراهيم عليه السلام ولكنها خاصة ببيان دعوته لقومه وهجرته بدينه، وليس فيها ذكر لحديث الملائكة معه، وقد جاءت بعدها قصة لوط وهي تبدأ بقوله "وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ" وتذكر جواب قومه وتحديهم له بقولهم "ائتنا بِعَذَاب الله إِنْ كُنْتَ منَ الصَّادقين"وتوجه لوطا إلى ربه داعيا "ربِّ انْصُرْنِي عَلَي القَوْم المُفسدينَ" واستجاب الله تعالي دعاءه وبعث إليه الملائكة لتنزل العذاب بقومه المفسدين، وقبل مجيء الملائكة إليه مروا علي الخليل إبراهيم عليه السلام لتبشيره بالولد وإخباره بهلاك قوم لوط، وقد جادلهم إبراهيم في شأن لوط لما علم بنزول العذاب على القرية، وطمأنوه بأنه ناج هو ومن آمن معه من أهله، ثم ذهبوا من عنده متوجهين إلى لوط عليه السلام وجرى بينهم وبينه ما جرى مما ورد في باقي القصة، ولعل هذا ما جعل هذه الحلقة ترد في ثنايا قصة لوط .

بداية وحوار:بداية هذه الحلقة تشبه بداية حلقة هود " إلا أن بداية حلقة هود بداية مستقلة وقائمة بذاتها، ومؤكدة باللام وقد " **ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى**" أما بداية هذه الحلقة فغير مستقلة، حيث تتصل وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحوار الوارد في الحلقة، إذ تقع البداية شرطاً للما الحينية ويقع الحوار جوابا

لها "**وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قالوا إنا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ** " وربط مجيء الرسل بهلاك القرية التي فيها قوم لوط بواسطة " لما " التي تدل على وجود الجواب لوجود الشرط فيه إشعار بأن ذلك هو المقصد الأصلي من مجيئهم، والهدف الأساسي من إرسالهم . وفي بدء الحوار هنا بقول الملائكة " **إنا مهلكوا أهل هذه القرية**" مع عدم تفصيل المشاهد التي تتعلق بإبراهيم عليه السلام وامرأته إيجاز بديع بطي هذه المشاهد نظراً لورودها في حلقات سابقة، ولأن هذه الحلقة عارضة في ثنايا قصة لوط ، فالمقام يقتضي إيراد ما يخص هؤلاء القوم فيها، وطي ما يخص إبراهيم عليه السلام وامرأته لعدم الحاجة إلي ذكره .

والمتأمل في الآية الجليلة يجد أن الحق تعالي قدم البشارة على الإنذار، لأن البشارة أثر الرحمة والإنذار أثر الغضب، ورحمته تعالي سبقت غضبه، كما يجد أن الله تعالى حين ذكر البشرى ما عللها، وحين ذكر الإهلاك علل ذلك بجرم أو ظلم أو غير ذلك؛ لأن ذا الفضل لا يكون فضله بعوض، والعادل لا يكون عذابه إلا على جرم [١] وأكد الكلام بإن لتأكيد الحكم وتقويته في مقام المحاورة وغرابة الحكم ، وعبر باسم الفاعل " مهلكوا " دون الفعل للإشارة إلى أن إهلاكهم أهل القرية ثابت محقق، فهم مهلكوها لا محالة، وفي إيقاع الإهلاك على أهل القرية لا نفس القرية إشارة إلي أن المقصود أهل القرية المفسدون وليس القرية بذاتها، وفي اسم الإشارة " هذه " تعيين للقرية وتمييز لها بواسطة الإشارة المحسوسة وإشعار بحقارتها وضعتها ودنو منزلتها من خلال اسم الإشارة القريب[٢].

وقوله تعالى " **إن أهلها كانوا ظالمين** " تعليل للإهلاك بإصرارهم علي الظلم وتماديهم في فنون الفساد وأنواع المعاصي، وقد علل الإهلاك لأن الإخبار بإهلاكهم مثير للتساؤل عن سبب ذلك، ومن ثم جاء التعليل مفصولاً

---

١) مفاتيح الغيب (٩ / ٥١) .

٢) ينظر تفسير أبي السعود (٧ / ٣٨) ، روح المعاني (٢٠ / ١٥٤) .

عما قبله للاستئناف البياني، وتأكيد التعليل لتحقيق مضمونه، والتعبير بـ " كانوا " فيه إشارة إلي قدم ظلمهم، وعراقتهم في الاتصاف به، والتعبير باسم الفاعل " ظالمين للدلالة على ثبوت ظلمهم واستمراره .

وكان تعميمهم في الإخبار بإهلاك أهل هذه القرية مبعث تساؤل لإبراهيم عليه السلام عن لوط ومصيره بسبب وجوده في هذه القرية " قال إن فيها لوطاً " أي فكيف تهلكونها مع وجوده فيها ؟ وكأنه عليه السلام أراد أن يطمئن اطمئناناً كاملاً على ابن أخيه الذي يهتم بأمره وتزداد شفقته عليه، وتأكيد الخبر بإن لتحقيق مضمونه، وزيادة تنبيههم علي وجوده فيها .وفي التعبير بـ " فيها " دون منهم أو من أهلها، إشعار بأنه ليس إخبارا لهم بكونه فيها، ولكن لما كان هلاك أهلها يعني تدمير القرية بكاملها، وكان لوط موجوداً فيها، دفعه ذلك إلي تحاوره مع الملائكة بشأنه كي ينبههم إلي وجوده فيها ، وليطمئن علي مصيره، وهذا هو سر جداله معهم(١)

ثم رد الملائكة على قول إبراهيم عليه السلام " قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين" وبالتأمل في هذا الرد نراه يشتمل على أربع جمل :**الأولى** " نحن أعلم بمن فيها " وهذا تسليم منهم لقوله عليه السلام في لوط ، والمراد أنهم غير غافلين عن مكان لوط عليه السلام، وهذا يقتضي نجاته من الهلاك عن طريق الكناية.والتعبير باسم التفضيل " **أعلم** " فيه دلالة علي مزيد علمهم بلوط عليه السلام ووجوده في هذه القرية، وفي حذف المفضل عليه إشعار بتعميم مزيد علمهم ، لعلمهم بمن فيها زائد علي علمه وعلى علم غيره .

والتعبير " بمن فيها " دون التعبير نحن أعلم بلوط ؛ فيه إشارة إلى عموم علمهم، فهم عالمون بلوط عليه السلام والمؤمنين من أهله، وعالمون بالمفسدين من أهله ومن غيرهم، وعالمون بجميع من في القرية ،**والجملة**

---

١) ينظر الكشاف ٣ / ٢٠٥ ،روح المعاني ٢٠ / ٢٣٠ بتصرف.

الثانيـة "لننجينـه وأهلـه" وهـي بيـان صـريح وتفصـيل لمصـير لـوط عليـه السـلام ومن آمن معه،بعد بيـان مصـيرهم عن طريـق الكنايـة فـي الجملـة الأولـى، وفـي هذا مزيد طمأنـة لإبراهيم وتسكين لقلبـه، وأكدوا الوعد بالتنجية إما للإشارة إلى مزيد اعتنائهم بشأنه ،وإما لتنزيلهم إبراهيم عليه السلام منزلة من ينكر تنجيته لما شاهدوا منـه فـي حقـه، وتحمل التنجيـة علي إخراجه من بين القوم وفصله عـــنهم وحفظـــه ممـــا يصـــيبهم فإنهـــا بهـــذا المعنـــى الفـــرد الأكمـــل . **والجملـة الثالثـة** : " **إلا امرأتـه** " وهـي استثناء مخـرج لهـا مـن أهلـه النـاجين، ومدخل لها في المهلكين المعذبين .**والجملـة الرابعة** " كانت من الغابرين " أي من الباقين في العذاب أو القريـة ليقع عليها الهلاك مع المهلكين [١] وقد سبق الحديث عن الاستثناء وما تلاه في حلقة سورة الحجر، وبهذا تنتهي هذه الحلقة المتداخلة في ثنايا قصة لوط عليه السلام ليتابع السياق أثرها عرض ما تبقى من قصته .

من هدايات الآيات

إذا ما تدبرنا آيات البشرى في قصة إبراهيم عليه السلام- والتي وردت في السور السابقة - نجد أنها قد اشتملت على العديد من العظات والهدايات نقتطف منها ما يأتي :-

(١) تعدد جوانب الخير في شخصية إبراهيم عليه السلام من إحسان إلـى الضـيف والبشاشـة، وتعجيـل القـرى، وكـون القـرى مـن أحسـن مـا عنـده ، وتقريب الطعام إلى الضيف ، وملاحقته بالكلام في غاية الرفق " [٢]

(٢) تبشير الملائكة الخليل وزوجه بالولد الصالح بعد سن اليأس يؤدي إلى الثقة بالمقدرات ، وأن نعمة الولد قد تكون في أي وقت شاء الله ليطمئن ما لم يرزق بالولد في أول عهده .

---

١) ينظر الكشاف ٣ / ٢٠٥، تفسير أبي السعود ٧ / ٣٧ ، روح المعاني ٢٠ / ٢٣٠ ، ٢٣١ .

٢) أضواء البيان (٣ / ٢٩ ، ٣٠) .

(٣) لفت الأنظار إلى قدرة الله الخارقة التي لا يعجزها شيء ، وأنه فوق الأسباب ، وأنه إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، والتنبيه إلى عدم اليأس وقطع الأمل ،فرحمة الله واسعة، وقد حذر الملائكة إبراهيم من القنوط واليأس ، وقد حكى القرآن ذلك " **(قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ)** (الحجر:٥٥).

(٤) التحلي بصفات الجود والكرم والحلم وغير ذلك من أخلاق إبراهيم عليه السلام

(٥) يقول بعض العلماء : إن ارتباط البشارة بتنفيذ وعبد الله في قوم لوط دليل على أن الحياة مزيج من الخير والشر والمحبوب والمكروه ، وأن الله تعالى كما يتوعد أهل الكفر وينزل بهم نقمته ، يكرم أهل طاعته ويعدهم برحمته " [1].

(٦) مشروعية السلام ،فهو من سنن الأنبياء من لدن إبراهيم إلى خاتم النبيين عليهم السلام،وأنه ينبغي أن يكون الرد أحسن ،ففيه الأمن والمحبة والطمأنينة للطرفين

(٧) في القصة دليل بين على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب .

(٨) أن حصول الولد المخصص بالفضل نعمة ،وأن هلاك العاصي نعمة أيضا ؛لأن البشرى قد فسرت بولادة إسحاق" فبشرناها بإسحاق" وفسرت بهلاك قوم لوط؛ لقوله تعالى" قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط" واستحباب نزول المبشر على المبشّر، ويستحب للمبشر أن يتلقى البشارة بالشكر لله تعالى على ما بشر به .

---

١) موسوعة القصص القرآني د / حمزة النشرتي وشركائه (١ / ٢٩٤، ٢٩٥) .

(٩) التعجب من الأمور الغريبة قد يظهر على بشرة الإنسان ويدفعه لفعل الأمور الغريبة كالضحك والاستغراب أو ضرب الوجه أو وضع الإصبع في الفم .

(١٠) يستحب التخفيف من روع المزور إن ظهرت عليه علامات الخوف والرعب بالتأنيس به وتوضيح الغرض من زيارته [١]

(١١) السير على الصراط المستقيم باتباع أوامر الله واجتناب نواهيه وهذا هو طريق الخير والهداية، وكلما كان الإنسان المسلم عابدا لله تعالى كان منه أقرب، فتكون حوائجه مقضية بأمر الله وقدرته، ورحمة الله وبركاته تتنزل عليه .إلى غير ذلك من الدروس النافعة في الدين والدنيا والآخرة .

١) محاسن التأويل (٩/ ٣٤٦٧).

المبحث الثاني

من أسرار آيات البشرى في قصة إبراهيم عليه السلام

المطلب الأول: من أسرار التشابه والتنوع في آيات البشرى

بادئ ذي بدء يجب أن نعلم أن آيات البشرى في قصة إبراهيم عليه السلام في سور هود والحجر والذاريات والعنكبوت قد اتفقت في المعنى والمضمون ، وهو أن الملائكة لما وردوا على الخليل حسبهم أولاً أضياف، فعاملهم معاملة الضيوف ، وقدم إليهم عجلاً سميناً ، وعرض عليهم الأكل ، ولكن لما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، فقالوا له لا تخف وبشروه بإسحاق ومن بعده يعقوب عليهما السلام ، فتعجب إبراهيم وامرأته من هذه البشرى ، وأخبروه بالمهمة التي أرسلوا من أجلها وهي إهلاك قوم لوط ، فما ورد في هذه السور من لقاء إبراهيم مع الملائكة وتلقيه البشرى بالولد إنما هو مقدمة لقصة لوط عليه السلام وما حل بقومه من النقمة والدمار ، وهذا هو السب في مجادلة إبراهيم عليه السلام لهؤلاء الملائكة بعد تبشيره بالولد . ولكن مع اتفاق الآيات في السور الأربع في هذا المضمون فقد وجد اختلاف وتغاير في اللفظ يقتضيه إعجاز البيان القرآني الحكيم الذي يقرر أن قصته عليه السلام سلسلة متصلة الفصول ، متتابعة الأحداث ، مترابطة الحلقات ، متعانقة الآيات ، منتظمة المعاني،فمن تتبع توجيه الآيات المتشابهات تجلى له الترابط والوحدة والانسجام بين حروف وكلمات وجمل هذه القصة، و له وفاء كل حرف وكل كلمة بالمعنى المراد في موضعه من غير احتياج إلى حرف آخر أو كلمة أخرى، فسبحان من هذا كلامه .

فإذا ما أجلنا النظر في هذه القصة نجد أن ثمة اختلافاً لفظياً بين الآيات المتشابهات، لذلك يجدر بنا أن نبين أسرار هذا الاختلاف في الأسلوب وذاك التنوع في التعبير ، وأن نزيل هذا الإشكال ، وأن نوفق بين ما يوهم

ظاهره من التناقض بين آيات القصة في سورها الأربع وهي: هود- الحجر – الذاريات – والعنكبوت :-

أولاً : قال تعالي في سورتي هود والذاريات " **قال سلام** " ولم يذكر ذلك في سورة الحجر ، فما وجه التوفيق ؟**والسر في ذلك الاختلاف :** أنه لما كانت سورة الحجر متأخرة عن سورة هود فقد اعتمد على ذكر تحية إبراهيم عليه السلام للملائكة في هود بقوله " **قَالُوا سَلاماً قَال سَلامٌ فَمَا لَبثَ أَنْ جَاءَ بعجل حنيذٍ** " وحذفها من سورة الحجر، بل قال " **إِنَّا منكُم وَجِلُونَ** " اكتفاء بما في هود ، فقد ذكرت قصة إبراهيم عليهم السلام في سورة هود ببسط وإسهاب، أما في الحجر فذكرت باختصار وإيجاز اعتمادا على ذكرها على وجه التفصيل في هود، وفي ذلك إظهار لخاصية القرآن وبلاغته ، فإن من عادة البلغاء عدم الإفصاح عما دل عليه دليل حتى لا يؤدي ذلك إلى الحشو أو الملل عند السامع أو القارئ [1] تعالى كلام الله عن ذلك . وأما ذكر ذلك في الذاريات؛فلأنه لما كان المقصود هناك الإسهاب في قصة الخليل ولوط عليهما السلام مبالغة في تسلية النبي – صلي الله عليه وسلم – بتكذيب قومه وإعلامه بأن له بسائر آبائه وإخوانه من الأنبياء أسوة حسنة ، وهذا الإسهاب يقتضي إثبات قوله " **قال سلام**"

ونضيف إلى ما سبق أنه خص آية الذاريات بقوله " **قال سلام قوم منكرون** " لأنه قصد بذكر هذه الآيات التفصيل في القصة ، وهذا التفصيل مناسب لقوله " **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين** " فكلمة "حديث" في الآية يستفاد منها ذكر التفصيل في القصة ، فبدأ في هذا التفصيل بذكر رد إبراهيم على الملائكة بقوله " **سلامٌ قوم منكرونَ** " ثم ذكر بعد ذلك أنه جاء إليهم بعجل سمين ليأكلوا ، ثم ذكر عدم أكلهم ، ثم خوفه منهم بسبب عدم

---

١) البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني ص١٥٦ بتصرف . دار الاعتصام .

الأكل ، ثم تبشيرهم له بالولد ، ثم تعجب امرأته من الولادة على كبر .أما آية الحجر فخصها بقوله " **إِنَّا مِنكُم وَجِلُونَ** "؛ لأنه قصد الإيجاز في هذه الآيات،وهذا الإيجاز مستقاء من عطف قوله " **ونَبِّئهم عن ضيف إبراهيم** " على قوله " **نبيء عِبادي أَنِّي أنا الغَفُورُ الرَّحيم وأنَّ عَذابي هُوَ العَذاب الأَلِيم** " لأن المعطوف عليه مذكور بطريق الإيجاز ، فقد ذكر رحمة الله تعالي وعذابه من دون تفصيل ، فناسب أن يأتي المعطوف بطريق الإيجاز. ومن هنا أوجز فقال" **إِنَّا منكم وَجِلُونَ** " والمعني أنه رد عليهم السلام ، ثم جاء إليهم بالطعام فلم يأكلوا فقال : إنا خائفون منكم، بيد أنه اقتصر فيما ذكر على سبيل الإيجاز ، ثم أتبع هذا المسلك بالاكتفاء بعد ذلك بذكر بشارة الملائكة له بالولد دون أن يذكر تعجب امرأته من الولادة على كبر كما حدث في الذاريات.ومن هنا يتضح لنا أنه خص في كل آية ما ذكر مناسبة للبسط ومراعاة للإيجاز في ذكر القصة في كل سورة .

ثانياً : قال تعالى في سورتي هود والذاريات " **لا تخف** " وقال في سورة الحجر " **لا توجل** " فما وجه التوفيق ؟ وجوابا عن ذلك: أن قوله في سورة الحجر " **لا توجل** " معناه : لا تخف لأن الوجل والخوف معناهما واحد وهو اضطراب النفس لتوقع مكروه [١] وإنما عبر في سورتي هود والذاريات بقوله " لا تخف " توسعة في التعبير عن الشيء الواحد بمتساويين ، وخص ما في سورة الحجر بقوله " لا توجل " لموافقته قوله " **إنا منكم وجلون** " وخص ما في سورتي هود والذاريات بقوله " لا تخف " لموافقته قوله " خيفة "[٢] .

ونضيف إلى ذلك أن من عادة العرب التفنن في الكلام ، والتعبير عن الشيء الواحد بألفاظ متعددة وقد نزل القرآن بلغتهم ، وفي إبراز الكلام الواحد

---

١) تفسير أبي السعود ٤ / ٢٤ .

٢) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لزكريا الأنصاري ص ٢١٥ مكتبة الصابوني .

في فنون كثيرة وأساليب مختلفة ما لا يخفى من الفصاحة والبلاغة ، وهذا وجه من وجوه الإعجاز في الآيات ، يقوم منه شاهد علي الزمن كله وعلى الإنسانية كلها بأنه منزل من عند الله تنقطع دونه أنفاس البلغاء ، وتقصر عن التعلق بقصصه أيدي أصحاب البيان .

ثالثاً : تبدأ الحلقات الأربع بدايات مشوقة فيها إثارة للانتباه ، وإيقاظ للأسماع وتهيئة للعقول ، وإن اختلفت درجة التشويق في كل منها فحلقة هود " ضمت بدايتها عنصرين من عناصر التأكيد هما اللام وقد" ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى " وذلك للإشعار بأهمية الخبر ، وتأكيد مجيء الملائكة إلي إبراهيم عليه السلام ، وتحقيق قدرة الله تعالي على إنزال الملائكة إلى رسله في الأرض ؛ تثبيتاً لقلب النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – ورداً على مطلب المشركين في بداية السورة " **(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)(هود:١٢)**. واشتملت من الألفاظ المشوقة علي لفظ البشري الذي جاء مطلقاً زيادة في التشويق وترغيباً في متابعة الحلقة لمعرفة مضمون هذه البشرى ، وتزداد درجة التشويق في بداية حلقة الحجر من خلال أمر الرسول – صلي الله عليه وسلم – بالتنبؤ بهذا الخبر، وإيراد الملائكة بوصف الضيف " ونبئهم عن ضيف إبراهيم " وفي بداية حلقة الذاريات تعلو نبرة التشويق وتشتد من خلال حشد عدد من عناصره وهل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين حيث بدئ بالاستفهام المشوق لما بعده ، وعبر بلفظ الحديث ، وصور بصورة القادر علي الإتيان ، وجعل الملائكة ضيوفاً ، ووصفوا بالمكرمين وفي كل إثارة للانتباه ، وتشويق إلى معرفة هذا الحديث العجيب ترغيباً للسامع في متابعته خصوصاً بعد أن عرض عليه مرتين فيما نزل من السور قبل ذلك .

ومن جوانب الاختلاف بين حلقتي الحجر والذاريات مجيء بداية الحلقة الثالثة مستقلة غير معطوفة على شيء سابق ، بينما جاءت بداية الحلقة الثانية

" الحجر " معطوفة على ما سبقها " نبيء عبادي أني أَنَا الغَفُورُ الرَّحيم "(الحجر:٥٠).

وتأتي بداية حلقة العنكبوت ملائمة لموضعها في ثنايا قصة أخري فربطت بها ربطاً وثيقاً عن طريق العطف " ولما " الشرطية ، وهذا في حد ذاته عنصر من عناصر التشويق يضاف إلي لفظ البشرى ، وربطها بأحداث قوم لوط لم يتح فرصة لوجود إحساس بفجوات في الرد ، أو شعور بانتقال مفاجيء ، وبهذا الربط القوي ، والاتصال الوثيق تختلف عن بداية الحلقة الأولي وإن تشابهتا في أكثر الألفاظ .

رابعاً : طمأنت الملائكة إبراهيم عليه السلام وثبتت قلبه، وأزالت خوفه على نحو متنوع ، ففي هود " قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط " وفي الحجر" قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم " وفي الذاريات" قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم " فما سر هذا التنوع والاختلاف ؟ **والجواب** : أن سر هذا التنوع – فيما يظهر لي – أن آيات هود بُدئت بذكر مجيء الرسل بالبشرى إلى إبراهيم عليه السلام ، فلم يك من المناسب أن يكرر تبشير الملائكة له في هذا الموضع القريب من سابقه ، وإلا ترتب عليه التطويل الذي لا يليق بجزالة التنزيل ، ومن ثم طمأنوه وأزالوا خوفه بإعلامه أنهم رسل الله تعالى أرسلهم إلى قوم لوط لإنزال العذاب بهم .

وآيات الحجر لم يذكر في بدايتها مجيء الرسل إليه بالبشرى ، ومن ثم طمأنوه وأزالوا وجله بأقرب الأشياء إلى نفسه وأحبها إلي قلبه وهي تبشيره بالغلام العليم .

وكذلك الحال في آيات الذاريات إلا أنه لما عبر عن خوفه في الحجر بالوجل وجرى ذلك على لسانه " إِنَّا منكم وجلُون " أزالوا وجله بمثل ما جرى على لسانه " قالوا لا توجل " وأكدوا له البشرى على نمط تأكيده الوجل " إنا نبشرك " ليكون قولهم متناسبا مع قوله ومتلائماً ، وفي هذا إزالة لخوفه الشديد الذي عبر عنه بالوجل ، ونطق به صراحة على سبيل التأكيد .ولما جاء

التعبير في الذاريات بالخوف فأوجس منهم خيفة أزالوا خوفه بمثل ذلك " قالوا لا تخف " ولم يؤكدوا له البشرى " وبشروه بغلام عليم تناسباً مع عدم تأكيد الخوف ، ولعدم نطقه بالخوف منهم صراحة ، وهكذا تنوع التعبير ليتناسب مع نظم الآيات الوارد فيها مع عدم الإخلال بالمقصود .

وفي الجمع بين الخوف والوجل ذكر العلماء أن هذا تفصيل لمراحل يتلو بعضها بعضا ، فقد ظهر عليه الخوف بعد دخولهم عليه على هيئة غير معتادة ، ولما تأكد خوفه بعدم أكلهم واجههم بوجله منهم فالخوف كان مرحلة أولي وقد ظهر عليه ولم ينطق به ، وتبعه الوجل الذي صرح به[١] .

خامساً : جاءت بشري الملائكة في الحجر والذاريات " **بغلام عليم** " بينما جاءت في الصافات " **بغلام حليم** "(الصافات:١٠١) فما السر في ذلك ؟

لقد اهتم صاحب ملاك التأويل ببيان السر في ذلك ، فذكر أن المبشر به واحد والقصة واحدة ثم بين أن موجب تخصيص آية الصافات بصفة الحلم ما اقترن بها من قوله تعالى " فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك " وجواب ابنه بقوله " افعل ما تؤمر " وامتثاله لأمر ربه وصبره وإرضاء أبيه كان ذلك مبيناً لجليل حلمه ، أما آية الذاريات وآية الحجر فلم يقع فيهما ذكر لهذه القضية فورد فيهما وصفه بالعلم وبذلك ورد في كل موضع ما يناسبه " [٢].

ولنا وجهة نظر في هذا الكلام ، فقد ذكر أن المبشر به واحد والقصة واحدة وهذا غير صحيح ، فالتحقيق أن المبشر به ليس واحداً ، والقصة ليست واحدة ، إذ إن المبشر به في الحجر والذاريات هو إسحاق كما صرح بذلك في هود [٣]) وقد بشر به في مجيء الملائكة إليه وحوارهم معه، وكان ذلك بعد أن

---

١) حاشية الشهاب على البيضاوي (٥ / ١١٤) .

٢) ملاك التأويل لابن الزبير (٢ / ٩٦٠) ، دار الغرب الإسلامي .

٣) وهو قوله تعالى :" فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب" .

ولد له إسماعيل وشب[١] بينما المبشر به في الصافات هو إسماعيل عليه السلام كما عليه جمهور المفسرين وأهل العلم [٢] ومن ثم فلا مدعاة للتساؤل عن الخلاف بين الوصفين في الآيات المذكورة ؛ لأن الصفتين الموصوفين مختلفين ، فوصف إسماعيل بالحلم لظهوره فيه في هذا المقام الذي اقتضى ذلك، ووصف إسحاق بالعلم إشارة إلى أنه سيكون رجلاً عظيم القدر ذا علم كثير غزير، ولأن تبشير إبراهيم بعلمه وثبوته فيه دلالة على بقائه إلى كبره ، وهذا يدل على أن الذبيح إسماعيل عليه السلام [٣].

سادساً : جاء في سورة هود وصف العجل بأنه " **حنيذ** " ووصف في سورة الذاريات بأنه " **سمين** " وهذا يؤدي إلى التعارض بين الآيتين الكريمتين ؟

والجواب: ليس بين الوصفين تعارض أو تناقض كما أوهم البعض ، فكلاهما صادق على العجل ، فهو موصوف بأنه سمين في بدنه وحنيذ في طبخه ، يقول صاحب التحرير والتنوير : ووصف العجل هنا بسمين ،ووصف في سورة هود بـ حنيذ أي مشوي ، فهو عجل سمين شواه وقربه إليهم ، وكان الشوا أسرع طبخ أهل البادية " [٤] ويضاف إلى ذلك أن وصف العجل بالحنيذ في هود أفاد أنه قد شوي في حفرة من الأرض بالحجارة المحماة لتنضجها ، وهذا هو معنى الحنيذ الذي " يقطر ماؤه بالدسم بعد الشواء [٥] أما وصف العجل بالسمين في سورة الذاريات فقد أفاد أنه كان ممتلئ الجسد بالشمم واللحم

---

١) البحر المحيط ٥ / ٤٥٨ .

٢) ينظر أنوار التنزيل ص ٥٨٨ ، تفسير ابن كثير ٤ / ٤ ، تفسير أبي السعود (٧ / ٢٠٠)

٣) ملاك التأويل ٢ / ٧٢٦ ، كشف المعاني لابن جماعة ص١٧٢ ت:عبد الجواد خلف دار الوفاء المنصورة

٤) التحرير والتنوير (٢٦ / ٣٥٩) .

٥) القاموس المحيط (١ / ٣٤٩) بتصرف .

، وفي هذا دلالة علي أن الخليل قد قدم أطيب ما عنده ، وذبح أجود ما يمتلئ وأنه أبلغ في إكرامهم ، فيضم هذا الوصف إلى ذاك – والله تعالى أعلى وأعلم

سابعاً : ما السر في قوله تعالى في سورة هود **فما لبث أن جاء بعجل حنيذ** " وقوله عز وجل " **فراغ** إلى **أهله فجاء بعجل سمين** " وما الفرق بين التعبيرين ؟

والسر فى هذا الاختلاف اللفظي هو أن كل آية أضافت نكتة لا توجد في غيرها ، فقوله تعالى " فما لبث أن جاء بعجل حنيذ " تشعر بأن الخليل إبراهيم عجل في مجيئه بالعجل ، وبادر بالمجئ ولم يتمهل أو ينتظر فترة من الزمن بدليل التعبير بالفاء التي تفيد التعقيب في قوله " فما لبث " .وأما التعبير بقوله " فراغ " إلى أهله " في الذاريات فقد أضاف إلى السرعة في مجيء العجل أنه قد ذهب إلى أهله علي خفية من ضيفه فإن من أدب المضيف أن يبادر بالطعام من غير أن يشعر به الضيف حذراً من أن يمنعه الضيف أو يصير منتظراً[١] فآية الذاريات أفادت معني جديداً وهو الخفاء والتسلل وآية هود أفادت معنى آخر هو السرعة في إحضار الطعام وهما من آداب الضيافة التي اتسم بها إبراهيم عليه السلام .

ثامناً : عبر تعالى عن الملائكة تارة بلفظ الرسل " **ولَقَد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى** " وتارة عبر عنهم بأنهم ضيوف في قوله " **ونبئهم عن ضيف إبراهيم** " *وقوله* " **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين** "؟

والجواب : أنه تعالى أسند إليهم المجيء ولم يتعرض سبحانه لعنوان رسالتهم لأنهم لم يكونوا مرسلين إليه عليه السلام بل إلى قوم لوط عليه السلام وإنما جاءوه لداعية البشرى ، وقيل : لما كان المقصود في سورة هود ذكر صنيع الأمم السالفة مع الرسل المرسلة إليهم ولحوق العذاب بهم، ولم يكن

---

١) روح المعاني (٢٨ / ١٨) .

جميع قوم إبراهيم عليه السلام من لحق بهم العذاب ، بل إنما لحق بقوم لوط منهم خاصة غير الأسلوب فعبر بالمجيئ[١].وأما سر تسميتهم ضيفاً قال العلماء : لأنهم كانوا في صورة الضيف ،حيث أضافهم إبراهيم عليه السلام ، أو لأن إبراهيم عليه السلام حسبهم ضيوفا ، فالتسمية علي مقتضى الظاهر والحسبان [٢].**قلت** : " إن الحق تعالى وصف رسل الله الملائكة بأنهم ضيف إبراهيم لكي يؤكد مدى حرص إبراهيم عليه السلام على إكرام ضيفه دون أن يعرف حقيقتهم ولا المهمة التي جاءوا من أجلها ، وهذا صفة الكرم الحقيقي الذي لا يخالطه زيف ولا يكون معه تكلف ، فلا تناقض بين هذين الوصفين الكريمين، وهذا يبرز التنوع في الأسلوب ، ومنه تستدل على ما بلغ فيه القرآن وهو كلام الله من علو الشأن ، وإحكام الآيات ،وأنه مهما تنوعت الأساليب في القصة الواحدة فإنه لا يؤدي إلى الإخلال بالمعنى ، أو الإضعاف من حبكة القصة ومكانة بنائها بل على العكس من ذلك فإنه يثير في النفس التشويق ولفت النظر ، وبث النشاط في فكر القارئ أو المستمع الذي يؤدي إلى حسن الاستماع والتدبر فسبحان من هذا كلامه .

تاسعاً : التوفيق بين الإنكار الوارد في سورة هود، والإنكار الوارد في سورة الذاريات، حيث يبدو لغير المتأمل أن بين قوله " قال سلام قوم منكرون " وبين ما في سورة هود تناقضاً ظاهراً ، ففي سورة هود كان الإنكار بعد تقديم الطعام إليهم : لما رأى سيدنا إبراهيم – عليه السلام – أيديهم لا تصل إلى طعامه فقال سبحانه : **فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم** " وأما سورة الذاريات فكان الإنكار قبل أن يحضر الطعام إليهم ، وكان عقب الدخول .

والحق : أنه لا تناقض بين ما ورد في سورة هود وسورة الذاريات ، وحاشا أن يكون في كتاب الله تناقض ؛ لأن الإنكارين مختلفان ، فالإنكار

---

١) روح المعاني (٧ / ١٣٩) .

٢) انظر الكشاف (٤ / ٢٩) ، تفسير النسفي (٤ / ١٨٥)، حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي ٨ / ٩٧

الواقع في سورة هود كان إنكاراً لعدم معرفة ما جاءوا من أجله ، فامتناعهم عن الطعام أدى إلى مظنة توقع الشر على ما كانت عليه عادة العرب .وأما الإنكار الوارد في سورة الذاريات فهو إنكار لشخصهم ، لأن أشكالهم غير معهودة له ، ولأنهم دخلوا عليه من غير استئذان ، وجاء في تفسير الجمل ما نصه : فإن قيل : قال تعالى في سورة هود : فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم " فدل ذلك على أن إنكاره عليه السلام حصل بعد تقريب العجل إليهم، وقال ههنا : قوم منكرون " ثم قال " فراغ إلى أهله " بفاء التعقيب ، وذلك يدل على أن تقريب العجل كان بعد حصول إنكاره ، فما وجه التوفيق ؟

فـالجواب : أن الإنكار الذي كان قبل تقريب العجل غير الإنكار الحاصل بعده فإن الإنكار الحاصل قبله بمعنى عدم العلم بأنهم من أي بلدة ، والإنكار الحاصل بعده بمعنى عدم العلم بأنهم قد دخلوا عليه لقصد الخير أو الشر ، فإن من امتنع من تناول الطعام يخاف من شره[١] .

وثمة جواب آخر وهو أنه لا تنافي بين الحديثين؛ لأن الخليل عليه السلام أنكرهم أولاً بالسلام الذي هو علم الإسلام ، ولم يكن من عادة تلك الشريعة ، ثم زاد في إنكاره حين رآهم لا يأكلون الطعام الذي قدمه إليهم ، فذكر إنكاره للسلام ومشاهدته لأشكال خلاف ما عليه الناس في الذاريات وذكر إنكاره لعدم الأكل من الطعام في هود ، وبذلك أضافت كل آية من السورتين ملحظاً هاما [٢]

ويمكن أن يجاب عن ذلك أيضاً بأنه ليس في هذا تعارض ، فإن هناك فرقا بين نكر وأنكر ، فالإنكار يكون بالقلب والنكر يكون باللسان ، فأخبر الله في سورة الذاريات عن إنكاره بالقلب وأخبر في سورة هود عن إنكاره باللسان ،

---

١) ينظر :الفتوحات الإلهية ٤ / ٢٠٤ ، فتح البيان ٩ / ١٢٥ .

٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٦ / ١٨٨ .

إذ لا يعقل أن ينكرهم بلسانه قبل أن يأتي أهله فيجيئهم بطعام لأن هذا يتنافي مع أدب الضيافة ، فالإنكار كان أولاً بالقلب فلما رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام أنكرهم بلسانه وأوجس منهم خيفة ، فأخبروه بشأنهم وبما جاءوا به من البشري ومن أمر آخر يتعلق بقوم لوط[١]

عاشراً :- التوفيق بين ما جاء في سورة هود والحجر والذاريات من اختلاف لفظ البشارة حيث قصد به إبراهيم عليه السلام تارة ، وقصدت به زوجته سارة تارة أخري ، وبيان ذلك :أنه جاء في سورة هود قوله تعالى " **فبشرناها بإسحاق** " وفي سورة الحجر قوله " **إنا نبشرك** " وفي سورة الذاريات "**وبشروه بغلام عليم** " وبهذا يبدو لغير المتأمل أن بين هذه الآيات تعارضاً وتناقضاً ؟

والحق أنه لا تناقض ولا تعارض ، فالبشارة في سورة هود وإن كانت موجهة إلي سارة إلا أنها تعتبر بشارة لإبراهيم عليه السلام أيضاً لأنهما زوجان ، والابن المبشر به مشترك بينهما ، ومما يدل على ذلك قوله تعالى في نفس القصة من سورة هود " فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشري يجادلنا في قوم لوط " وكذلك البشارة في سورتي الحجر والذاريات ، وإن كانت موجهة إلى إبراهيم عليه السلام تعتبر بشارة أيضاً لزوجته سارة فالبشارة كانت لهما معا فالقصة واحدة يفسر بعضها بعضاً زيادة في البيان والإيضاح ، قال ابن كثير في قوله تعالي " وبشروه بغلام عليم " فالبشارة له بشارة لها لأن الولد منهما فكل منهما بشر به [٢] وخصت سارة بالبشرى وتوجيه البشرى إليها في سورة هود دون إبراهيم عليه السلام للأسباب التالية :-**الأول** : أنها لما اختصت بالضحك خصت بالبشري **الثاني** : أنهم كافأوها بالبشرى مقابلة على استعظام

---

١) قصص القرآن د / محمد بكر إسماعيل ص ٧٦ ، دار المنار ١٩٩٧ م .

٢) تفسير ابن كثير (٤ / ٢٣٧) .

خدمتها **الثالث** : أن النساء في البشرى بالولد أعظم سروراً وأكثر فرحاً **الرابع** : للإيذان بأن ما بشرا به يكون منهما ولكونها عقيمة حريصة علي الولد **الخامس** : الإشارة إلي أن ذكر أحدهما فيه اكتفاء عن الآخر والمقام أمس بذكره وأبلغ ، أو للتوصل إلي سوق نبئها في ذلك وخرق العادة فيه ، ولأنه لم يكن لها ولد وكان لإبراهيم ولد وهو إسماعيل[١] قال الألوسي : وقد جعل سبحانه البشارة هنا لإبراهيم وفي آية أخرى لامرأته ولكل وجهة ،ولعلها هنا كونها أوفق بإنباء العرب عما وقع لجدهم الأعلى عليه السلام [٢] .**قلت** : يمكن أن تكون البشارة قد حصلت في وقتين متقاربين ، فبشروه – عليه السلام– بانفراد ، ثم بشروا زوجته بعد ذلك ،والله أعلم .

حادي عشر: جاء في سورتي هود والذاريات تعجب سارة من البشرى وتقديم بيان حالها على حال إبراهيم عليه السلام في هود خاصة ، وجاء في سورة الحجر تعجب إبراهيم عليه السلام من تبشيره بالولد دون ذكر امرأته، فما وجه التوفيق بين الآيات الكريمة ؟ **والجواب** : أنه في كل سورة ينص على جانب من القصة لأخذ العبرة منها ، وعند التأمل في سورتي هود والذاريات يعلم أن الحكاية محكية فيهما على وجه الإضافة أبسط ، قال الألو سي في تفسيره لسورة هود: " وإنما قدمت بيان حالتها علي بيان حاله عليه السلام ؛ لأن مباينة حالها لما ذكر من الولادة أكثر إذ ربما يولد للشيوخ من الشواب ، أما العجائز داؤهن عقام ، ولأن البشارة متوجهة إليها صريحاً ولأن العكس في البيان ربما يوهم من أول الأمر نسبة المانع عن الولادة إلى جانب إبراهيم عليه السلام وفيه ما لا يخفي من المحذور[٣] .

---

١) ينظر تفسير أبي السعود (٤ / ٣٢٥) ، محاسن التأويل (٩ / ٣٤٦) ، تفسير النسفي ٢ / ٢٨٢) .
٢) روح المعاني (١٤ / ٨٩) .
٣) روح المعاني ١٢ / ١٥٠ .

ففي سورة الذاريات اقتصرت سارة امرأة إبراهيم عليه السلام علي ذكر السبب الدال علي عدم الولادة منها ولم تذكر غيره ، وأما في هود فذكرت السبب المانع للولادة منها ومن زوجها ثم صرحت بالعجب بعد ذلك ، وأما سورة الحجر فقد اقتصرت على تعجب إبراهيم عليه السلام من تبشيره بالولد لأنها لم تتعرض لذكر امرأته ولا تقديم الأكل للملائكة ولا شيء من ذلك أصلا اكتفاء بما ورد في سورة هود ، فمبني السورة علي الإيجاز البليغ ، ومبني سورتي هود والذاريات على البسط والإطناب فذكر في كل النكتة الزائدة ، وكذا القول في تبيين المبشر به فلم يبين في سورتي الحجر والذاريات أما في سورة هود فقد ذكر باسمه وهو إسحاق ، ولم يقل إن القوم قوم من في الذاريات والحجر وفي سورة هود قال قوم لوط ، وعلي كل فباعتبار أن القصة واحدة فيحمل ما ورد هنا علي ما لم يرد هناك فالزيادة أو النقص من إحدي السور إنما هي باعتبار المقام والسياق ،فتدبر .

ثاني عشر : اختلف في التعبير عن قول الملائكة في ردهم لتعجب إبراهيم الخليل وزوجته ، فعبر القرآن تارة بقوله عنهم" **قالوا أتعجبين من أمر الله** " وتارة يعبر بقوله " **قالوا بشرناك بالحق** " وتارة أخرى يعبر بقوله " **قالوا كذلك قال ربك** " وهذا يؤدي إلى التعارض والتناقض في الآيات الكريمة، فما وجه الجمع بينها ؟

والجواب :أن مفاد قول الملائكة أن قول الله تعالى كقول الملائكة المرسلين بأمره في الصدق والمطابقة للواقع فمضمون الكلام واحد مع اختلاف التعبير في الرد على تعجب إبراهيم عليه السلام وامرأته ، والغرض من هذا الكلام أن الحمل والولادة أمران تابعان لقضاء الله ومشيئته وأمره وإرادته ، فهو سبحانه الذي يجعله ممكناً إذا شاء ومستحيلاً إذا أراد لا يدخل في حدوثه أو منعه إرادة البشر أو مشيئتهم وما الناس إلا أسباب له ، فمع إرادة الله تعالي تنمحي كل إرادة ، ومع مشيئته تختفي كل مشيئة ، وتلغى الأسباب ، فكل

شيء بقضاء الله وقدره وحوله وقوته ، فليس لقوي البشر ومقاييسهم دخل فيه إلا ما يكون بين الأسباب والمسببات، وصدق الله إذ يقول **(لِلَّـهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) (الشورى: ٤٩- ٥٠)** .فأمر الله الوارد في سورة هود هو الحق الوارد في سورة الحجر وهو قول رب العالمين الوارد في سورة الذاريات، ولا إشكال في ذلك ،فما يبدو من أنه اختلاف بين المقولات في القصة الواردة ليس إلا تجميعاً لمتناثر الأقوال من هذه القصة ، أو ليس إلا التقاطا لظاهر القول ، وما يكمن وراءه من خواطر وخلجات لا يستطيع أن يمسك بها إلا النظم القرآني المعجز وحده على هذا الأسلوب البديع .

ويمكن أن نستنبط جوابا آخر وهو أنه قد تكرر أمر الله في قصص سورة هود فناسب ذكر أمر الله هنا وأما في سورة الحجر فورد لفظ الحق في أولها فناسب ذكر الحق في قول الملائكة المنزلين بالحق ، وأما في سورة الذاريات فورد قول رب العالمين في مقابلة قول المشركين المختلف في أمر البعث .

ثالث عشر : ختمت آيات سورة هود بقوله " **إنه حميد مجيد** " وختمت آيات سورة الذاريات بقوله سبحانه " **إنه هو الحكيم العليم**" فما سر هذا التذييل والترتيب ؟ **وجوابا عن ذلك** أقول: ختمت سورة الذاريات بسعة حكمة الله تعالى وسعة علمه لإزالة تعجبهما ودهشتهما وبيان أن الله تعالي لا يقضي ولا يحكم بشيء عبثا وجزافاً وإنما كل شيء عنده بمقدار وبحكمة واسعة بالغة وعلم تام شامل للأشياء كلها ، وحاشاه عن العبث ، أما في سورة هود فختمت الآية الكريمة بجملة " إنه حميد مجيد " لأنهم أي الملائكة – لما بشروهما – إبراهيم عليه السلام وسارة – وأزالوا تعجبهما وصدقاهم أرشدوهما ونبهوهما إلى حمد الله وشكره والثناء عليه ، فهو أهل الحمد والمجد والثناء والشكر ، وواهب النعم كلها صغيرها وكبيرها وجليلها وقليلها وأجاب عن ذلك الإمام الرازي فقال

: لما بينا أن الحكاية هناك (أي في سورة هود) أبسط ، فذكروا ما يدفع الاستبعاد بقولهم " أتعجبين من أمر الله " ثم لما صدقت أرشدوهم إلى القيام بشكر نعم الله وذكروهم بنعمته بقولهم " حميد " فإن الحميد هو الذي يتحقق منه الأفعال الحسنة ، وقولهم " مجيد " إشارة إلى أن الفائق العالي الهمة لا يحمده لفعله الجميل، وإنما يحمده ويسبح له لنفسه . وههنا لما لم يقولوا " أتعجبين " أشار إلي ما يدفع تعجبها من التنبيه على حكمه وعلمه ، وفيه لطيفة وهي أن هذا الترتيب مراعي في السورتين ، فالحميد يتعلق بالفعل ، والمجيد يتعلق بالقول ، وكذلك الحكيم هو الذي فعله ، كما ينبغي لعلمه قاصداً لذلك الوجه بخلاف من يتفق فعله موافقاً للمقصود اتفاقاً ، كمن ينقلب على جنبه فيقتل حية وهو نائم ، فلا يقال له حكيم ،وأما إذا فعل فعلاً قاصداً لقتلها بحيث يسلم عن نهشها يقال له حكيم فيه ، والعليم راجع إلى الذات إشارة إلي أنه يستحق الحمد بمجده وإن لم يفعل فعلاً وهو قاصد لعلمه ، وإن لم يفعل على وفق القاصد [1].

رابع عشر : ذكرت السور الأربع ما دار بين إبراهيم والملائكة بشأن قوم لوط في أساليب متنوعة ، ففي هود جاء علي هذا النحو " فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب بإبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود " وفي الحجر ورد على هذا النحو " قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلي قوم مجرمين إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين " وفي الذاريات ورد على هذا النحو : قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلي قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين " وفي العنكبوت جاء على هذا النحو " ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين

---

١) مفاتيح الغيب (١٠ / ١٧٨) .

قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ، فهل لهذا الاختلاف في الحوار سر يكمن وراءه ؟

والجواب : إن المتأمل في نظم هذا المشهد في جميع معارضه نجده يبدأ في " هود " بالتصريح بذهاب الخوف عن إبراهيم عليه السلام ، بينما لم يصرح بذلك في السور الأخرى ، والسر في ذلك أن آيات هود لم يفصل فيها تبشير إبراهيم ولم يجر فيها حديث معه بهذا الشأن فناسب ذلك أن يصرح بذهاب الخوف عنه كي لا يظن أنه ما زال علي خوفه وروعه بدليل عدم وجود حوار معه ، وأما في الآيات الأخري فقد بشر إبراهيم صراحة وجرى في بعضها حديث معه ، وهذا كاف في بيان زوال الخوف عنه وذهابه بعد أن بشروه وتحدث معهم .

كما نجد أن المشهد يبدأ في الحجر والذاريات بسؤال إبراهيم للملائكة عن خطبهم وشأنهم الذي جاءوا من أجله ، بينما لم يبدأ في هود بهذا السؤال.

والسر في هذا أن آيات هود أشير في بدايتها إلي المهمة التي من أجلها أرسل الملائكة " إنا أرسلنا إلي قوم لوط " فليس من المناسب لجزالة التنزيل ودقته وإحكامه أن يسأل عن ذلك مرة أخرى لأنه سيكون سؤالاً عن المبين ، ولا بلاغة في السؤال عنه ، بينما لم تبين وظيفة الرسل ومهمتهم في بداية آيات الحجر والذاريات ، فكان لا بد لإبراهيم عليه السلام من أن يسألهم عن خطبهم وشأنهم الذي أرسلوا إليه .على حين لم يذكر شيء في الحجر والذاريات عن جدال إبراهيم بشأن لوط ومن آمن معه ،بينما أشير إليه إشارة موجزة في هود ، وفصل ووضح في العنكبوت ولعل السر في ذلك : أن الرسل حددوا مهمتهم في الحجر والذاريات بأنهم أرسلوا لإهلاك قوم مجرمين ، وهذا التحديد يخرج لوطاً ومن آمن معه من الدخول في المهلكين ، فلم يكن في هذا المقام مقتض لذكر جدال إبراهيم عن لوط ومن آمن معه ، لأن أمرهم واضح بهذا التحديد المبين للمهلكين،أما في هود فقد قالوا إنا أرسلنا إلي قوم لوط ، وفي هذا القول تعميم يبعث علي التساؤل والجدال عن مصير المؤمنين

من هؤلاء القوم ومن ثم أشير إلي جدال إبراهيم عنهم .وفي العنكبوت " قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية " وهذا تعميم أكثر مما هو في هود فكان هذا المقام مناسبا لتفصيل جدال إبراهيم في لوط ورد الملائكة عليه ، أضف إلى ذلك أن هذه الحلقة واردة في ثنايا قصة لوط مع قومه ، وهذا مقتض آخر لتفصيل جدال إبراهيم في شأن لوط عليهما السلام .

خامس عشر : تتنوع الأساليب التي أخبر بها القرآن عن عذاب قوم لوط ، ففي هود أخبر بإشارة موجزة ولكنها صريحة " وإنهم آتيهم عذاب غير مردود " ، وكذلك في العنكبوت " إنا مهلكوا أهل هذه القرية " وفي الحجر لم يشر إليه صراحة ولكن أخبر بنجاة المؤمنين من أهله وبقاء امرأته مع الهالكين " إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين " وفي الذاريات فصل لإبراهيم العذاب " لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين " .

والسر في ذلك – حسب علمنا – أن قصة إبراهيم في هود أعقبتها قصة لوط مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً ، وقد ورد في قصة لوط تفصيل وتوضيح للعذاب الواقع بقومه "**فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**" فلم يك من المناسب لدقة القرآن وإحكامه أن يخبر إبراهيم بهذا العذاب في قصته ، ويكرر ذكره في قصة لوط التالية لها والمرتبطة بها علي أن ذكره في قصة لوط أحق وألزم وهي به أولى لأنها مختصة بقومه ومبينة لجناياتهم ، فيلزم أن تختم ببيان عقابهم الشديد التي ترتب على هذه الجنايات البشعة .وكذلك الحال في سورتي الحجر والعنكبوت ، بل إن ما يخص إبراهيم عليه السلام في العنكبوت عارض في ثنايا قصة لوط لبيان موقف إبراهيم من هؤلاء القوم ، فليس من الجزالة والدقة أن يفصل العذاب في وسط القصة ثم يعاد تفصيله في أخرها .

أما في سورة الذاريات فلم تذكر قصة لوط مفصلة عقيب قصة إبراهيم ، بل أدمجت القصتان في قصة واحدة على نمط بديع من خلال تفصيل العذاب الذي سيقع بقوم لوط لإبراهيم عليه السلام ، وجعل هذا آخر قصته ، مع كونه في ذات الوقت بداية ونهاية لقصة قوم لوط وما وقع لهم بإيجاز مزيد وبذكره تنتهي قصتهم في السورة فلم تذكر في موضع آخر ، وبذلك كان هذا هو الموضع المناسب لتفصيل العذاب .

سادس عشر : يتنوع التعبير في الإخبار بنجاة لوط وأهله إلا امرأته نجد في الحجر قوله تعال : " إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين " ، وفي العنكبوت قال تعالى : " لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين " ولم يذكر مثل ذلك في آيات هود والذاريات فما السبب في هذا الاختلاف ؟

والجواب : أن السبب في ذلك أنه أرجئ ذكر ذلك في هود إلى قصة لوط التالية لقصة إبراهيم فهي الأولى بذكره ، وحكي بعبارة مختلفة حيث قال : "**يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ**"(**هود:٨١**) فدل على وسيلة النجاة والتخلص من العذاب الذي سيقع علي القرية وأهلها ، وأعلم بهلاك امرأته مع الهالكين " .

وفي آيات الذاريات لم يذكر ذلك لأن إخبار الملائكة بإرسال الحجارة عقب بقوله فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين(الذاريات:٣٥- ٣٦) فكان هذا بياناً لمصير لوط عليه السلام والمؤمنين معه وقد أغني ذلك عن إيراده مرة ثانية .أما في الحجر فقد ذكر ذلك لأن قصة لوط وردت عقيب قصة إبراهيم ولم يذكر فيها ذلك ، وفي العنكبوت ورد هذا جوابا من الملائكة عن جدال إبراهيم عليه السلام ، والمقام يقتضي ذكره .

المطلب الثاني"من أسرار البلاغة في آيات البشرى"

بعد أن انتهينا من تحليل حلقات قصة إبراهيم مع ملائكة الله الكرام ، وبيان ما في نظمها من تشابه وتنوع وأسرار ذلك نقف في هذا المبحث أمام بعض أسرار البيان في حلقات القصة لنتحدث عنها بصفة عامة في جميع الحلقات بعد أن تناولنا كثيراً منها بالحديث في مواضعها ، ويتناول الحديث هنا أهم الخصائص المتصلة بعلم البيان والمعاني ، فنقول وبالله التوفيق .

الاستفهام :يبرز أسلوب الاستفهام على رأس الخصائص البلاغية الملحوظة في حلقات قصة إبراهيم عليه السلام ، وذلك لما له من قدرة على إظهار المعنى الحقيقي والمجازي ، وقد ورد الاستفهام في حلقات القصة في مواضع ، فمنه ما هو من جانب الله تعالى ، ومنه ما هو محكي عن إبراهيم أو زوجه ، ومنه ما هو محكي عن الملائكة الكرام .

فما ورد من جانب الله تعالي قوله تعالى " هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين " وهو استفهام تقريري لتفخيم شأن الحديث ، ولتجتمع نفس المخاطب ، كما تبدأ المرأ إذا أردت أن تحدثه بعجيب فتقرره هل سمع ذلك أم لا ؟ فكأنك تقتضي أن يقول لا ويطلب منك الحديث [١] وسر التعبير بالاستفهام هنا : تفخيم شأن الحديث ولفت للنظر والانتباه ،وتنبيه على أنه ليس من علم الرسول ، وإنما عرفه بطريق الوحي[٢] وأما ما حكي عن إبراهيم عليه السلام من استفهام فقد ورد في قوله تعالى " فقربه إليهم قال ألا تأكلون " وقد حمل بعض المفسرين الاستفهام هنا علي الإنكار[٣] على حين حمله آخرون على العرض والحث والإنكار[٤] بيد أن حمله على الإنكار أصالة يبدو

---

١) إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ٩ / ٣١٥ .

٢) ينظر الكشاف ٤ / ١٧ ، حاشية الشهاب ٨ / ٩٧ ، البحر المحيط ٨ / ١٣٨ .

٣) الكشاف ٤ / ١٨ .

٤) أنوار التنزيل ص ٤٢٩ ، التحرير والتنوير ٢٦ / ٣٥٧ .

مجافيا للأصول البلاغية؛ لأن النفي المستفاد بلا أزيل ونفي بهمزة الاستفهام فحرى أن يكون الاستفهام أصالة للتقرير بترك الأكل ثم يردف عليه إنكار إعراضهم عن الأكل مع التلويح بالحث على الأكل والوقوف على معرفة السبب الذي حملهم عليه [١] .

كما حكي عن إبراهيم عليه السلام قوله " أبشرتموني علي أن مسني الكبر فبم تبشرون " والاستفهامان مجازيان والمراد منهما الإنكار والاستبعاد لأن الإنجاب مع كبر السن مستبعد عادة ، وهما مع الإنكار والاستبعاد يفيدان لونا من التعجب والدهشة[٢] والذي سوغ إبراهيم عليه السلام استبعاد بشارة الملائكة عدم علمه بحقيقتهم قبل أن يفصحوا له عنها مع قيام المانع من الإنجاب عنده وعند امرأته .كما حكي عنه عليه السلام " ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون " فالاستفهام هنا إنكاري في معنى النفي ولذلك استثنى منه إلا الضالون [٣] .

كما حكي عن سارة زوج إبراهيم عليه السلام استفهام واحد موجه إلي الملائكة عندما بشروها بإسحاق عليه السلام " **قَالتْ يَا وَيْلَتي أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوز وَهَذا بَعْلِي شَيخاً** " وقد جاء الاستفهام بالهمزة وهو يفيد التعجب من بشارتهم لها بالولد واستبعاد ذلك بناء على ما جرت به العادة لا قدرة الله تعالى.وأرى أن الاستفهام هنا استفهام تعجب مشوب بالإنكار أو تعجب متفرع عن الإنكار إذ لم تجر العادة أن تلد النساء اللاتي في سنها، وهذا وارد بالنظر إلى طبيعة البشر إذا عراهم أمر مستغربْ

---

١) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم د / عبد العظيم المطعني (٤ / ١٥٥) مكتبة وهبة – القاهرة

٢) روح المعاني ١٤ / ٦١ .

٣) تفسير أبي السعود ٥ / ٨٢ .

كما حكي عن الملائكة استفهام واحد في قوله تعالي " أتعجبين من أمر الله " وهو للإنكار التعجبي أي لا ينبغي لك أن تعجبي من شيء هو من أمر الله القادر .

النهي : وهو من الأساليب الواضحة في قصة إبراهيم مع الملائكة ،ولقد ورد النهي في حديث ضيف إبراهيم من جانب الملائكة وذلك في أربعة مواضع في قوله تعالي " **لاَ تُوجل إِنَّا نُبَشرك بِغُلامٍ عَلِيم** " وقوله تعالي " **لاَ تَخَف إِنَّا أرْسَلْنَا إلي رُسُلنَا إِلَي قَوْمٍ لُوط** " وقوله عز وجل " **قَالُوا لاَ تَخَف وبَشِّرُوهُ بِغُلام عَلِيم** " وقول جل ثناؤه : **فلاَ تَكُن من القَانطِين** " وقد جاء النهي الأول والثاني والثالث ردا على وجل اعتراه وخوف تلبس به عندما وجد ضيوفه في هيئة غريبة ولا يمدون أيديهم إلي الطعام ، وجاء النهي الأخير ردا على تعجبه واستبعاده للبشري بالولد بناء على ما جرت به العادة من استبعاد ذلك في مثل حاله وسنه .

النداء :وهو أسلوب واضح في القصة ومن ذلك :-

١ - نداء إبراهيم الملائكة، ووقع في موضعين بصيغة واحدة في الحجر والذاريات " فما خطبكم أيها المرسلون وفي حذف حرف النداء إشعار بقربه منهم واستعمال هذه الصيغة في ندائهم لما فيها من تنبيه ودلالة على المشافهة عن طريق " ها " تشويق وتأكيد عن طريق الإيضاح بعد الإبهام في "أي" وصفتها[١] .

٢ - نداء سارة زوج إبراهيم عليه السلام وهو في قوله تعالى " يا ويلتى أألد وأنا عجوز " ومعناه يا ويلتي أحضري فهذا أوان حضورك ، والمقصود بالنداء هنا التعبير عن فرط التعجب والاندهاش [٢] وأصل النداء أن يكون لمن

---

١) نظم الدرر (١١ / ٦٧) .

٢) ينظر تفسير القرطبي ٩ / ٧٢ ، تفسير أبي السعود ٤ / ٢٢٥ .

يعقل، وقد ينادي ما لا يعقل على سبيل المجاز ، وفي ندائه تعظيم للأمر على نفس المتكلم وعلى سامعه إن كان ثم سامع[١].

٣ – نداء الملائكة . وقد جاء في موضعين الأول في سورة هود في قوله "**رَحمة الله وَبَرَكَاته عَلَيْكُم أَهْلَ البَيْت**"وهو نداء لإبراهيم وزوجه، وفائدته : تخصيص أهل البيت بالرحمة والبركات، وفي حذف حرف النداء إشعار بالقرب الشديد وقوة الصلة ، وعظيم التقدير ، ورشح ذلك عن طريق الكناية عنهما بأهل البيت[٢] .

والثاني : في نفس السورة : يا إبراهيم أعرض عن هذا " وهو نداء من الملائكة لإبراهيم عليه السلام لحثه على ترك المجادلة في شأن قوم لوط ، ومن ثم نودي بأداة البعيد مع قربه الشديد منهم لقوة تنبيهه وشدة إيقاظه إلى الأمر الذي سيوجه إليه وإشعار بتعظيم شأنه وإعلاء منزلته .

الإيجاز : وهو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط (وهو إما إيجاز بالقصر أو بالحذف)[٣] ووقع الإيجاز بنوعيه في قصة إبراهيم مع الملائكة في مواطن متعددة : فأما إيجاز القصر فمنه قوله تعالي " قَد جَاءَ أَمْرُ ربك " حيث اشتمل على بيان قضاء الله تعالي في قوم لوط بالهلاك ، فلا مفر من وقوعه بهم ، ولا مجال للجدال في شأنهم فأمر الله نافذ لا محالة. وأما إيجاز الحذف فيدور أكثره حول حذف جزء من أجزاء الجملة أو حذف الجمل والمشاهد .

١ – **حذف جزء من الجملة** :من ذلك حذف المسند إليه في قوله تعالى " **وَقالت عَجوُز ٌعَقيمٌ** " والتقدير: أنا عجوز عقيم ، وفي حذفه دلالة على ضيق صدرها وشدة الأمر عليها بعد تبشيرها بسبب حالها التي تتنافى مع

---

١) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٣ / ٦٣٤ ، وانظر الكتاب لسيبويه١ / ٧٢٠ .

٢) التفسير البلاغي للاستفهام ٢ / ١١١ .

٣) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٢٧٧ دار الكتب العلمية – بيروت ط الأولي ٢٠٠٠ م.

ذلك حسب العادة [١] وقوله عز وجل" قوم منكرون" والتقدير : هم قوم منكرون. وقوله تعالى " يجادلنا في قوم لوط "ففيه إيجاز بالحذف والأصل : في شأن قوم لوط ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه للإشارة إلي مدى اهتمامه بهم وشفقته عليهم حيث جادل الرسل فيهم .وقوله" أهل البيت " فيه إيجاز بالحذف حيث حذف حرف النداء ، وبقي عمله وهو نصب المنادى المضاف .

٢ – **حذف الجملة** :كما نجد مظاهر الإيجاز بحذف الجملة في القصة في مواضع وفيرة، من ذلك قوله تعالي " **إِذْ دَخَلُوا عَلَيهِ فَقَالوا سَلاَماً قَال إِنَّا منكُم وَجِلُونَ** " حيث حذف رد إبراهيم عليهم بقوله " سلام " حسبما بين في حلقتي هود والذاريات وفي حذف جملة الرد إشعار بشدة الوجل الذي سيطر عليه من جراء قدومهم على هيئة غريبة وعدم الأكل من الطعام الذي قدمه إليهم،وكأن الوجل شغله عن رد السلام [٢] قال صاحب نظم الدرر: إذ " ظرف زمان بمعنى حين، والحين قد يكون واسعاً ، فيذكر ما فيه تارة جميعه على ترتيبه، وأخرى علي غير ذلك وتارة بعضه مع إسقاط البعض مع صدق جميع وجوه الإخبار، لكونه كان مشتملاً علي الجميع[٣].ومن ذلك قوله جل وعلا " فقربه إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة " حيث حذف من الكلام جملة مفادها : فلم يأكلون ، فأوجس منهم خيفة، وفي حذفها مسارعة إلى وصف حاله وما ناله من خوف ووجل عندما لم يأكلوا .

ومن ذلك قوله تعالى : فراغ إلي أهله فجاء " فحذف هنا جمل ثقة بدلالة الحال عليها وإيذاناً بكمال السرعة في المجيء بالطعام أي فذبح عجلا فحنذه ، وفي ذلك من الإيجاز بطي الأحوال المفهومة ما لا يخفى[٤] .

---

١) خصائص التراكيب د / محمد أبو موسي ص ١٣٠ . مكتبة وهبة – القاهرة .

٢) حاشية الشهاب ٥ / ٢٩٨ .

٣) نظم الدرر (١١ / ٦٦) .

٤) روح المعاني (٢٧ / ١٢) .

الإطنـاب وهو أداء الكـلام بأكثر من عبارة أو زيادة اللفظ على المعنى الفائدة[١] ووردت بعض ألوان الإطناب في آيات البشرى في قصة إبراهيم عليه السلام في مقامات تستدعي بسط الكلام أو تأكيده وتقريره وغير ذلك من الأغراض البلاغية وأهم هذه الألوان :-

١ - **التكرير** : وهو دلالة اللفظ علي المعني مرددًا[٢] ففي حلقة الحجر نجد تكرارا للفظ البشارة "إنا نبشرك بغلام عليم قال أبشرتموني علي أن مسني الكبر فبم تبشرون قالوا بشرناك بالحق " وذلك لما للفظ من أثر نفسي يستجلب السرور ويستدعي الحبور ولا سيما أن البشرى بغلام عليم طالما تاقت نفسه إلى مثله .

٢ - **التذييل** :وهو تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد[٣] وهو أكثر ألوان الإطناب وجودا في آيات البشرى، حيث تختم به آيات كثيرة تأكيداً لما فيها من معان وتعليلاً لها، من ذلك ما نجده في قوله تعالي " إنه حميد مجيد " وهو تذييل تعليلي كما بينا من قبل عند حديثنا عن الدراسة التحليلية لآيات سورة هود ، وسر هذا التذييل بالاسمين الجليلين : أنه تعالي ذيل هذه الآية بتذييل حسن لبيان أن مقتضي حال امرأة إبراهيم عليه السلام أن تحمد مستوجب الحمد إليها بما أحسن، وتمجده إذ شرفها بما شرف[٤] وهناك سر آخر أبرز العلامة ابن عاشورحيث قال : إن هذه الجملة تعليل لتوجه

---

١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير (١ / ٣٤١) ت: د / أحمد الحوفي، دار النهضة – مصر

٢) المثل السائر (٢ / ٣٤٥) .

٣) المطول علي التلخيص لسعد الدين التفتازاني ص ٢٩٤ ط: أحمد كامل .

٤) روح المعاني (١٢ / ١٥٣) .

رحمته وبركاته إليهم بأن الله يحمد من يطيعه، وبأنه مجيد أي عظيم الشأن لأحد لنعمه، فلا يعظم عليه أن يعطيها ولداً " [١] .

ومنها قوله تعالى " **إن إبراهيم لحليم أواه منيب** " فهذه الآية تذييل جار مجرى المثل وهو تذييل تعليلي يعلل جدال إبراهيم عليه السلام في شأن قوم لوط ، بجانب ما يشتمل عليه من وصف إبراهيم بصفات عظيمة [٢].

ومنها قوله تعالي في سورة العنكبوت " **إن أهلها كانوا ظالمين** " تذييل تعليل للإهلاك بإصرارهم علي الظلم وتماديهم في فنون الفساد وأنواع المعاصي ، وقد علل الإهلاك لأن الإخبار بإهلاكهم مثير للتساؤل عن سبب ذلك ومن ثم جاء التعليل مفصولاً عما قبله للاستئناف البياني [٣]

ومنها قوله في سورة الذاريات " **إنه هو الحكيم العليم** " تذييل قصد به تعليل كلام الملائكة ، وإشارة إلي إزالة استبعادها الولادة لأن فعل الله مبني علي الحكمة والعلم فإذا قال ذلك فلا داعي للعجب سبحانه جلت حكمته وعظمت قدرته .

الفصل والوصل: ويأتي على رأس الخصائص البلاغية في القصة ولكننا نلحظ : أن أكثر مواضع الفصل بين الجمل سببه الاستئناف البياني الذي هو شبه كمال الاتصال ، وهذا راجع إلي شيئين أولهما : كثرة الجمل التعليلية والتذييلية في مقاطع الآيات وهذه الجمل غالباً ما تكون جوابا عن أسئلة تثيرها الجمل السابقة عليها. كما أن شيوع أسلوب الحكاية الذي يروي ما دار بين الأطراف من حوار ، والفصل بين الأقوال والردود عليها في هذا الأسلوب مؤسس علي الاستئناف البياني ، وقد نبه الشيخ عبد الظاهر الجرجاني صاحب الدلائل علي ذلك فذكر أن الذي نراه في التنزيل من لفظ " قال "

---

١) التحرير والتنوير (١٢ / ١٢٢) .

٢) الكشاف (٢ / ٢٨٢) .

٣) تفسير أبي السعود (٧ / ٣٨) .

مفصولاً غير معطوف جاء علي ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال كما جرت به العادة في الكلام بين الناس[١]

ومن ثم نرى وقوع الفصل للاستئناف كثيراً في الحلقات التي تعتمد أسلوب حكاية الحوار، من ذلك ما نراه جليا في الحلقات التي تحكي حديثه مع الملائكة في هود والحجر والذاريات والعنكبوت ،حيث بُنيت في غالبها على حكاية الحوار الذي دار بين الطرفين ، بل إن حلقة الحجر قد قامت كلها علي هذا الأسلوب ، ومن ثم جاءت جملها مفصولة للاستئناف البياني .ولقد ضرب صاحب الدلائل بعض آيات حلقة الذاريات مثالا على الفصل بين حكاية الأقوال للاستئناف البياني وكلامه في ذلك مما ينبغي ذكره، قال : واعلم أن الذي تراه في التذييل من لفظ " قال " مفصولاً غير معطوف هذا هو التقدير فيه [٢] والله أعلم أعني مثل قوله تعالى : هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ... إلى قوله تعالى " قالوا لا تخف " جاء علي ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال ، فلما كان في العرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم : دخل قوم على فلان فقالوا كذا أن يقولوا : فما هو ؟ ويقول المجيب : قال كذا ، أخرج الكلام ذلك المخرج لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه ، وسلك باللفظ معهم المسلك الذي يسلكونه، وكذلك قوله : قال ألا تأكلون " وذلك أن قوله " فجاء بعجل سمين فقربه إليهم " يقتضي أن يتبع هذا الفعل بقول ، فكأنه قيل والله أعلم : فماذا قال حين وضع الطعام بين أيديهم ؟ فجاء قوله " قال ألا تأكلون " جواباً عن ذلك .وكذا قوله" **قالوا لا تخف** " لأن قوله" **فأوجس منهم خيفة**" يقتضي أن يكون من الملائكة كلام في تأنيسه وتسكينه مما خامره ،

---

١) دلائل الإعجاز للجرجاني ص ٢٤٠ ، مكتبة المدني – القاهرة – ١٩٩٢ .

٢) يقصد كونه جواباً عن سؤال مقدر كما سبق في كلامه .

فكأنه قيل : فما قالوه حين رأوه وقد تغير ودخلته الخيفة ؟ فقيل : قالوا لا تخف " [١].

ومنه قوله تعالى " وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ " "قَالَتْ يا ويلتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ " ، فقد جاءت الجملة الثانية " قالت ياويلتى "مستأنفة سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قالت ؟[٢] فالمانع من العطف في هذا الموضع وجود الرابطة القوية بين الجملتين ، وأشبهت حالة اتحاد الجملتين ولهذا وجب الفصل ، والله أعلم .

القصر: وهو تخصيص الموصوف عند السامع بوصف دون ثان[٣] وقد ورد القصر عن طريق النفي والاستثناء في قوله" ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون"

الالتفات وهو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلي الأخبار وعن الأخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك، أو الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر[٤] وقد ورد الالتفات من الغيبة إلي الخطاب في قوله تعالى " لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين " تسلية للرسول – صلى الله عليه وسلم – وتسرية عن نفسه الشريفة حتى لا يحزن وحتى يصبر على ما أصابه من مشركي مكة .

التعريف باسم الإشارة :ورد اسم الإشارة فيما حكي عن الملائكة في ثلاثة مواضع :

---

١) دلائل الإعجاز ص ٢٤٠ – ٢٤١ .

٢) فتح القدير(٢/ ٥١١)

٣) مفتاح العلوم ص ٢٨٨ .

٤) البديع لابن المعتز ص٢٠٦ .

الأول : في قوله تعالى : يا إبراهيم أعرض عن هذا " والإشارة إلي جدال إبراهيم عليه السلام في شأن قوم لوط ، وواضح في اسم الإشارة التحقير والتهوين ، أي أعرض عن هذا الجدال الذي لا فائدة منه فقد جاء أمر الله .

والثاني : في قوله تعالى " قالوا كذلك قال ربك " واسم الإشارة يعود إلى التبشير بالغلام، والمخاطب به سارة حين تعجبت من هذا وصكت وجهها وهو يفيد التعظيم

والثالث في قوله تعالى : إنا مهلكوا أهل هذه القرية " وفي اسم الإشارة تمييز للقرية وإشعار بحقارتها .وجاء اسم الإشارة فيما حكي عن زوجة إبراهيم في موضعين يفيد فيهما تمييز المشار إليه مع تعظيمه وذلك في قوله جل جلاله " وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب " .

وضع الظاهر موضع الضمير:ونجد ذلك في قوله تعالى : رحمة الله وبركاته " حيث وضع المظهر موضع المضمر لإظهار وشرف الرحمة وعظمتها بإضافتها إلى اسم الجلالة ، وفي ذلك تشريف لأهل البيت الذين عمتهم هذه الرحمة العظيمة ، ونجد أيضاً في قوله تعالى" مسومة عند ربك للمسرفين " فوضع المسرفين موضع المضمر ذما لهم بالإسراف بعد ذمهم بالإجرام ، وإشارة إلي علة الحكم[١] وفي قوله تعالى" إن أهلها كانوا ظالمين " حيث وضع الأهل في موضع الضمير لذمهم بالظلم ، وللإشعار باستقلال الجملة التعليلية وتنصيصاً على اتفاقهم علي الفساد [٢] .

---

١) روح المعاني (٢٧ / ١٤) .

٢) المرجع السابق (٢٠ / ٢٣٠) .

التقديم والتأخير:وهو من الظواهر البلاغية الشائعة في قصة البشرى، ومن ذلك :-

١ - تقديم الجار والمجرور علي المفعول في قوله تعالى " وأوجس منهم خيفة، ولقد أوضح ذلك العلامة أبو السعود حيث قال : وتأخيرها عن الجار والمجرور " **منهم** " لأن المراد الإخبار بأنه عليه السلام أوجس من جهتهم لا من جهة غيرهم ، كما أن في تأخيرها تشويقاً إليها؛ لأن تأخير ما حقه التقديم يوجب ترقب النفس إليه فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن "[١].

٢ - تقديم الداعية والسبب من ذلك قوله تعالي " فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة " قدم نكرانهم علي التوجس منهم خيفة؛ لأن الأول داعية وسبب للثاني .

٣ - تقديم السبب المباشر على غيره كما في قوله تعالى " قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا " فالسبب الأول في ذلك كونها عجوزاً ، أما كون بعلها شيخاً فيأتي في المرتبة الثانية إذ شيخوخة الرجل لا تمنع قدرته علي الإنجاب .

٤ - تقديم التخلية على التحلية كما في قوله تعالي : فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشري يجادلنا " فقدم ذهاب الخوف والروع أولا على مجيئهم بالبشري لأن درء المفاسد مقدم علي جلب المصالح كما هو معلوم .وكذا قوله تعالي : قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم" وقوله " قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم " فقدم الحق تعالي التأنيس ونفي الخوف والوجل على التبشير من باب تقديم التخلية على التحلية

---

١) تفسير أبي السعود (٤ / ٢٢٥) .

التعبير بالماضي عن المضارع والعكس : لقد آثر الحق تعالى في بعض المواطن التعبير بالماضي في قوله " أبشرتموني " إشارة إلى تحقيق البشارة التي سلط عليها الاستبعاد لأن الشيء غير المعهود يحسن إنكاره إذا أخرج مخرج المتيقن.وعدل عن الماضي إلى المضارع في قوله " فبم تبشرون " إشارة إلى أن هذه البشارة تتعلق بأمر سيأتي ،لا بأمر أتى وتطبيقاً على قول الملائكة من قبل " إنا نبشرك " [١]

كما جاء قوله تعالي " يجادلنا " وكان الظاهر أن يعبر بالماضي إلا أنه عبر بالمضارع لحكاية الحال الماضية ، واستحضار صورتها[٢].

المجاز : وهو استعمال اللفظ في غير معناه الحقيقي لعلاقة مع وجود قرينة مانعة

من إرادة المعني الحقيقي[٣] ولقد برز التعبير بالمجاز في آيات البشرى نقتطف منها ما يلي:-

١ – قوله تعالى " أبشرتموني على أن مسني الكبر " المس في لغة القرآن مستعار حيث ورد لشدة الإحساس ومراد الخليل عليه السلام المبالغة في تصوير المانع من الإنجاب حسب العادة ، وإسناد المس أيا كان معناه إلى الكبر مجاز عقلي[٤][٥] وسر هذا المجاز:تهويل شأن الكبر الذي بلغه إبراهيم عليه السلام

٢ – قوله تعالى : يجادلنا في قوم لوط " ولا شك أن المجادلة كانت مع الرسل في شأن قوم لوط ، ولكن أسند الجدال إلى الله تعالى مجازاً، فهنا مجاز

---

١) التفسير البلاغي للاستفهام (٢ / ١٨٣) .

٢) تفسير أبي السعود (٤ / ٢٢) .

٣) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٣٥٩ .

٤) المجاز العقلي : هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له لعلاقة مع قرينه مانعة من إرادة الإسناد الحقيقي انظر مفتاح العلوم ص ٣٩٣ .

٥) التفسير البلاغي للاستفهام (١٨٣٢) .

في الإسناد فالملائكة ذهبوا بأمر الله فمن عارضهم في شيء فقد عارض الحق تعالى [١].

٣ – قوله تعالي : وبشروه بغلام عليم " فقد سمي الغلام عليما باعتبار ما يئول إليه أمره إذا كبر سنه وهو مجاز مرسل[٢] [٣] علاقته اعتبار ما سيكون في المستقبل ، وصار عليماً نبيا كما قال تعالى في آية أخرى" وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين"(الصافات:١١٢) ولأن تبشير إبراهيم بعلمه ونبوته فيه دلالة على بقائه إلى كبره وهذا من إعجاز القرآن الكريم [٤] .

٤ – قوله تعالي " إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين " ففي الفعل " قدرنا " مجاز عقلي لأن هذا من كلام الملائكة عليهم السلام ، وإنما أسندوا ذلك إلي أنفسهم وهو فعل الله تعالي ، إذ هو المقدر والآمر لما لهم من الزلفى والاختصاص، وهذا كما يقول حاشية السلطان : أمرنا ورسمنا بكذا ، والآمر هو السلطان في الحقيقة [٥]

٥ – قوله تعالي " قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز" ففي قوله " يا ويلتى " استعارة بالكناية[٦] حيث شبه الويل بمن يعقل ثم حذف المشبه به ورمز له بالنداء ، أي يا ويلي هذا أوان حضورك [٧] .

---

١) حاشية الشهاب (٥ / ١١٧) .

٢) المجاز المرسل : هو كلمة استعملت في غير معناها الأصلي لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعني الأصلي انظر الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني (٥ / ٢٠) .

٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه ٩ / ٣١٥ .

٤) نظم الدرر (١١ / ٦٦) .

٥) ينظر تفسير أبي السعود (٥ / ٨٢) ، روح المعاني (١٤ / ٩٨ ، ٩٩) .

٦) الاستعارة بالكناية أو المكنية : اختلف في تعريفها فهي عند جمهور القدماء : اسم المشبه به المستعار في النفس للمشبه المحذوف والمرموز إليه بإثبات شيء من لوازمه للمشبه، وهي عند السكاكي : لفظ المشبه المستعمل في المشبه به ادعاء بقرينة استعارة ما هو من لوازم الم شبه به [انظر الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني (٥ / مجلد ٢ / ١١٨) .

٧) ينظر تفسير القرطبي (٩ / ٧٢) ، حاشية الشهاب (٥ / ١٦١) .

٦ – قولـه تعـالي رحمـت الله وبركاتـه عليكم أهل البيـت " ففـي رحمـة وبركـات استعارتان مكنيتان حيث شبه كل منهما بالسحاب المظل أو السقف في النفع والحفظ ثم حذف المشبه به ، ودل عليه بحرف الجر " على "[١] .

٧ – قولـه جل وعلا " فلما ذهب إبراهيم الروع وجاءته البشري ، ففي الجملتين استعارة مكنية مبنية علي تشبيه كل من الروع والبشري بعاقل يذهب ويجيء ، وحذف المشبه به وإثبات لازم من لوازمه للمشبه ، وفي ذلك تصوير للروع والبشري بصورة محسوسة [٢] .

٨ – قولـه عز وجل" هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين " فهنا استعارة مكنية مبنية على تشبيه الحديث بقادر على الإتيان وحذف المشبه به وإثبات لازمه للمشبه وهو الإتيان،وهو تصوير للحديث بصورة قادر يأتيه ويتحدث إليه بما في نفسه[٣][٤]

الكنايـــة [٥] وعنـد استقصـائي لآيـات البشـرى وقفـت علـى نـوعين للكنايـة، وهما :-

١. الكنايـة عـن موصـوف : ومنـه قولـه تعـالى فـي قصـة البشـرى " وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ " فقولـه " فضحكت) كناية عن الحيض ، من قولهم : ضحكت الأرنب إذا حاضت[٦] ، وهي من أجمل الكنايات في التعبير عن المعنى الذي يستحى منه بلفظ أجمل وأوقر .

---

١) المرجع الأخير ٥ / ١٦٢ .

٢) حاشية الشهاب (٥ / ١١٧) .

٣) المرجع السابق ٨ / ٩٧ .

٤) روح المعاني ١٢ / ١٥٦) .

٥) الكناية هي لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعني انظر الصناعتين ص٣٦٠ لأبي الهلال العسكري ط صبيح ط الثانية .

٦) على قول من ذهب إلى أن الضحك بمعنى الحيض وقد ذكرناه سلفا ،ينظر:٢٠

٢. **الكناية عن صفة :** ومنه قوله تعالى في قصة البشرى أيضا " فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ " فقوله "لا تصل إليه " يريد : أن أيدي الملائكة لا تصل إلى الطعام ،أو أنه – عليه السلام – رآهم لا يأكلون فهي كناية عن عدم الأكل[١] وقوله تعالى في ثنائه على خليله " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ " ، فمعنى (الأواه) كثير التأوه ، والتوجع على الناس ، فهو كناية عن شدة اهتمامه بهموم الناس [٢] وقوله تعالى " إنه قد جاء أمر ربك " كناية عن العذاب الذي قضاه الله لهم

وهذا آخر ما وفقني الله عز وجل إليه من جمع واستخراج بعض المعاني والأسرار التي ينطوي عليها كلام ربنا الحكيم في أمثال هذه الآيات المباركات من قصة إبراهيم –عليه السلام– ولا شك أن هذا غيض من فيض، وقطرة من بحر لجي، لو كان له مداد من أبحر ما نفدت كلمات الله ؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد.

---

١) روح المعاني(١٢/ ١٥٦)

٢) ينظر: تفسير البيضاوي ٣/ ١١٥ ، والتحرير والتنوير ١٢٣/١٢ .

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين وإماماً للمتقين وسيداً للأولين والآخرين ، وهادياً للناس أجمعين سيدنا محمد وعلى وصحبه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد .

فهذا غيض من فيض ، وقليل من كثير مما يستحقه هذا الموضوع" آيات البشرى في قصة إبراهيم عليه السلام دراسة تحليلية " بذلت فيه قصارى جهدي حتى خرج علي هذه الصورة ، فإن كنت أحسنت فمن الله الإحسان ، وإن كانت الأخرى فمن نفسي الضعيفة وحسبي شرف المحاولة ، وعلى الله قصد السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ولقد تمخض هذا البحث عن نتائج عدة من أهمها :-

أولا :أن الضيافة من الأخلاق الفاضلة وسنن الأنبياء عليهم السلام ؛إذ تجسد هذا الخلق الكريم في خليل الرحمن، فكان أول من ضيف الضيف، وكان يكنى بأبي الضيفان

ثانيا: سلك النظم القرآني مسلكاً معجزاً في حكاية المشاهد المكررة في الحلقات وذلك بتلوين الأسلوب وتنويعه وإضافة أحداث لم تذكر ، وتفصيل وقائع لم تفصل طبقاً لمقتضيات المقام ، وبذلك يبدو المشهد جديداً في شكله ومضمونه ، بحيث يرى المتأمل أنه لا تكرار في القصص القرآني .

ثالثا: تعددت مظاهر التنوع في الأساليب المتشابهة والمواقف المتقاربة ، وقد وقفنا في دراستنا لهذا الجانب علي أسرار دقيقة في النظم القرآني تقرر ما ذكره العلماء من أن لكل كلمة فيه موقعاً خاصاً تتلاءم معه وتتلاءم معها ، ووفاء كل حرف وكل كلمة بالمعنى المراد في الموضع الذي ذكر فيه من غير احتياج إلى حرف آخر أو كلمة أخرى، وليس بينها كلمة أو حرف زائد لا فائدة منه ، بل كل حرف فيه إنما جاء لغرض يقتضيه المعنى المراد وموجب يوجبه السباق واللحاق .

رابعا : للخصائص البلاغية في القصة جانب كبير في إبراز المعاني المقصودة، وإظهار الأغراض المرادة ، ومن ثم برزت هذه الخصائص في ثنايا آيات البشرى في قصة إبراهيم عليه السلام ، فلم يخل منها تعبير أو أسلوب، بل لم تخل منها

كلمة **خامسا** : القصة القرآنية نهج متميز في بنائها المحكم وصياغتها الدقيقة التي تقوم على الإيجاز البديع بطي المشاهد الجزئية والتفصيلات التي لا يتعلق بها غرض اعتماداً على فهمها من السياق ووحي العبارات، وهذا راجع إلى أنها تركز على جانب العظة والعبرة ، ومن ثم فلا تسرد الأحداث سرداً تاريخياً ، ولا تراعي ذكر كل صغيرة وكبيرة .

سادسا : الدعوة إلي إكرام الضيف وإحسان نزله ، واليقين بالرزق وبنعمة الولد في أي وقت دون التقيد أو الأخذ بالأسباب، والإيقان بأن المقدرات قد تخالف العادة التي طبع عليها البشر ، وأن نعم الله قد تأتي في أي وقت شاءه الله تعالى .

سابعا:أن في تبشير إبراهيم عليه السلام بالولد دلائل عظيمة منها:الدلالة على قدرة الله المطلقة، فهو سبحانه مسبب الأسباب، فإذا انقطعت الأسباب الأرضية فهناك مدبر الأمور جل شأنه، وأن نعمة الولد نعمة لا تضاهيها نعمة من نعم الدنيا .

وفي ختام هذا البحث أتضرع إلى الله جل شأنه داعيا إياه بما دعا به إبراهيم عليه السلام " **ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** " " **ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** " وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،وصلى اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه والتابعين .

أهم المراجع والمصادر

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: كتب التفسير وعلوم القرآن :-

١ – الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي، المكتبة العصرية– صيدا بيروت .

٢ – إرشاد العقل السليم لأبي السعود دار إحياء التراث العربي – بيروت لبنان .

٣ – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي – عالم الكتب – بيروت .

٥ – إعجاز القرآن لمحمد بن الطيب الباقلاني ط الحلبي، الرابعة ٣٩٨ – ١٩٧٨

٦ – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفي صادق الرافعي، دار الكتاب العربي.

٧ – إعراب القرآن للنحاس – عالم الكتب : بيروت، ط ثالثة ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨

٨ – أنوار التنزيل للإمام البيضاوي نشر مؤسسة البعثة – بيروت لبنان ط الأولي

٩ – البحر المحيط لأبي حيان دار الكتب العلمية . بيروت لبنان ط الثانية .

١٠ – البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، دار الاعتصام

١١ – البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي – المكتبة العصرية صيدا بيروت ١٢ – التحرير والتنوير لابن عاشور الدار التونسية للنشر .

١٣ – التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ، دار المعارف ط السادسة ١٩٧٥ م .

١٤ – تفسير القرآن العظيم لابن كثير – المكتبة التوفيقية – .

١٥ – التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ، دار الفكر العربي .

١٦ – تفسير المنار لمحمد رشيد رضا – دار المعرفة – بيروت لبنان – ط ثالثة .

١٧ – تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار دار النهضة الحديثة– بيروت

١٨ – جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري دار المعرفة – بيروت .
١٩ – الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ، دار الحديث – القاهرة – ط الأولي ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م .
٢٠ – حاشية محي الدين زادة على تفسير البيضاوي – المكتب الإسلامي .
٢١ – حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ، دار الكتب العلمية – بيروت ط الأولي ١٤١٧ – ١٩٩٧ م .
٢٢ – روح المعاني للإمام الألوسي دار الفكر ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م .
٢٣ – زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي دار الكتب العلمية – بيروت ط الأولى ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م .
٢٤ – السراج المنير للشربيني الخطيب دار المعرفة – بيروت ط الثانية بدون .
٢٥ – غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي ط أولي ١٩٦٨ .
٢٦ – فتح البيان لصديق حسن خان ط دار الفكر العربي .
٢٧ – فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لزكريا الأنصاري ، تحقيق محمد علي الصابوني ، مكتبة الصابوني .
٢٨ – فتح القدير للشوكاني – عالم المعرفة – بدون تاريخ .
٢٩ الفتوحات الإلهية للعلامة الجمل دار إحياء الكتب العربية فيصل عيسي الحلبي
٣٠ – كشف المعاني في المتشابه من المثاني لبدر الدين بن جماعة ت . عبد الجواد خلف، دار الوفاء المنصورة ط الأولى ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .
٣١ – قصص القرآن د / محمد بكر إسماعيل دار المنار ١٤١٨/ ١٩٩٧ م .
٣٢ القصص القرآني في مفهومه ومنطوقه لعبد الكريم الخطيب دار المعرفة بيروت
٣٣ – الكشاف للزمخشري دار المعرفة– بيروت لبنان .
٣٤ – لباب التأويل للخازن ط الحلبي ط الثالثة ١٣٧٥– ١٩٥٥م .
٣٥ – مباحث في علوم القرآن لمناع القطان الدار السعودية للنشر.
٣٦ – المحرر الوجيز لابن عطية دار الكتب العلمية – بيروت ط :١ ١٩٩٣ م .

٣٧ – مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ، دار إحياء الكتب العربية عيسي البابي الحلبي بمصر .
٣٨ – معالم التنزيل للبغوي دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط الأولى – ١٩٩٣ م .
٣٩ – معاني القرآن للزجاج – عالم الكتب بيروت ط الأولي ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م
٤٠ – معاني القرآن للفراء – عالم الكتب بيروت ط الثانية .
٤١ – ملاك التأويل لابن الزبير دار الغرب الإسلامي ، ط:الأولي ١٩٨٣ م .
٤٢ – مفاتيح الغيب للإمام الرازي دار إحياء التراث العربي – بيروت ط الأولى .
٤٣– موسوعة أخلاق القرآن د:أحمد الشرباصي، دار الرائد العربي– بيروت لبنان
٤٤ – موسوعة القصص القرآني د:حمزة النشرتي، عبد الحفيظ فرغلي– دار المنار
٤٥ – مناهل العرفان للزرقاني ، دار الفكر بيروت ط الأولي ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦
٤٦ – نظم الدرر للبقاعي دار الكتاب الإسلامي – القاهرة .
٤٧ – النكت والعيون للما وردي ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط الأولي ١٤١٢ هـ
٤٨ – الوحدة الفنية في القصة القرآنية لمحمد الدالي ط آمون – القاهرة .
٤٩ – الوسيط للإمام الواحدي ، دار الكتب العلمية – بيروت لبنان ، ط :١ ١٩٩٥
٥٠ – معاني القرآن للنحاس تحقيق محمد علي الصابوني – مركز إحياء التراث الإسلامي ط الأولي ١٩٨٨ م .

ثالثا : كتب اللغة والبلاغة :-

١ – الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ت د / محمد عبد المنعم الخفاجي ، دار الجيل بيروت ط ثالثة ١٤١٤ / ١٩٩٣ .
٢ – إعراب القرآن وبيانه لمحي الدين الدرويش دار ابن كثير للطباعة د النشر – دمشق ط الرابعة ١٤١٥ / ١٩٩٤ .
٤ – التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم د عبد العظيم المطعني مكتبة وهبة – القاهرة .

٥ – خصائص التراكيب د / محمد أبو موسي – مكتبة وهبة – القاهرة .
٦ – دراسات لأسلوب القرآن الكريم لمحمد عضيمة– دار الحديث القاهرة .
٧ – دلائل إعجاز لعبد القاهر الجرجاني، مطبعة المدني القاهرة الثالثة١٩٩٢ .
٨ – الصناعتين لأبي هلال العسكري المكتبة العصرية بيروت ١٤٠٦ ١٩٨٦ .
٩ – ظاهرة التكرار بين النجاة والبلاغيين للسيد صقر كلية الآداب جامعة طنطا ١٩٩٧ م .
١٠ – القاموس المحيط للفيروز آبادي الهيئة المصرية العامة للكتاب –١٩٧٧ م .
١١ – الكتاب لسيبويه ، دار الكتب العلمية ط ثانية ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
١٢ – لسان العرب لابن منظور، دار المعارف – مصر .
١٣ – المثل السائر في أدب الكاتب لابن الأثير ت: أحمد الحوفي، دار نهضة مصر
١٤ – مختار الصحاح للرازي ، دار المنار .
١٥ – المصباح المنير للفيومي – دار الفكر .
١٦ – المطول علي التلخيص لسعد الدين التفتازاني ، ط أحمد كامل .
١٧ – معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، دار الجيل – بيروت .
١٨ – المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية لإبراهيم أنيس وشركائه الثانية ١٩٧٢ م
١٩ – مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ، دار الفكر– الأولى ١٩٩٢ م
٢٠ – مفتاح العلوم للسكاكي ، دار الكتب العلمية – بيروت الأولي – ٢٠٠٠ م .
٢١ – المفردات للراغب الأصفهاني ، دار الفكر .